بهاء طاهر



To My Princess

Abeer

Ahmed Mady

# أنا الملك جئت

مجموعة قصصية

دار الشروق

# أنا الملك جئت

«كتابات بهاء طاهر من هذه الكتابات الهامسة التي تنساب إليك في هدوء آسر بليغ، وتربت على مشاعرك في نعومة ورقة مهما بلغت حدتها الدرامية وعمقها الدلالي. إنه قصاص شاعر متصوف تفيض شاعريته وصوفيته برؤية إنسانية حارة تُغريك برومانسيتها الظاهرة عما وراءها من حكمة وعقلانية وإحساس عميق بالمسئولية والالتزام».

**محمود أمين العالم**

«ما لبثت الأبعاد الرمزية الخصبة التي بدأها الكاتب في مجموعته السابقة «بالأمس حلمت بك» أن ترسخت في مجموعته الثالثة «أنا الملك جئت» بعوالمها الفريدة واستيحاءاتها الشعرية للأساطير والتواريخ المصرية القادرة على سبر أغوار الحاضر والكشف عن أسراره المخبوءة».

**صبري حافظ**

• • •

بهاء طاهر من مواليد ١٩٣٥. أحد أهم الروائيين العرب. نال جائزة مبارك للآداب عام ٢٠٠٩، وقبلها جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٨، كما حصلت روايته «واحة الغروب» على جائزة البوكر العربية في دورتها الأولى عام ٢٠٠٨، صدرت له حتى الآن ست روايات، من أهمها: «خالتي صفية والدير» عام ١٩٩١ و«الحب في المنفى» عام ١٩٩٥. وخمس مجموعات قصصية بالإضافة إلى دراسات أدبية ونقدية وترجمات.

الغلاف: وليد طاهر

6 221102 025904

دار الشروق
www.shorouk.com

اهداء خاص الى

الأميرة

عبير بنت سعد

بهاء طاهر

# أنا الملك جئت

مجموعة قصصية

دار الشروق

## المحتويات

# أنا الملك جئت



ـ ١ ـ

في خريف ١٩٣٢ تجهز فريد بك للسفر.. اعترض والده فضيلة الشيخ عبد الله القاضى بالمعاش. ساءه أن يُغلق فريد عيادته الناجحة فى باب اللوق ويسافر للمجهول. لكنه لما رأى إصرار فريد على الرحيل باركه وأعطاه مصحفا صغيرا ليلازمه. أصر الشيخ عبد الله أيضا أن يصحب فريدا فى الرحلة راضى، خادم فضيلته الخاص. وليلة السفر أَمَّهُمَا فى الصلاة معا، وتلا دعاء مطـولا وهو يضع يده على رأس فريد،ثم مال وهمس فى أذن ولده: سلِّم أمرك تعد السكينة إلى قلبك.

ـ ٢ ـ

عندما تخرّج فريد فى جامعة جرينوبل فى سنة ١٩٢٤ كان يحب مـارتين طـالبـة الآداب هنـاك وتعاهدا على الزواج. لم يرحب الشيخ عبد الله بزواج فريد من فرنسية. ولما جاءت مارتين إلى القاهرة فى شتاء سنة ١٩٢٥ (نزلت فى فندق شبرد وهناك قابلها الشيخ) ورأى وجهها البرىء كطفلة، وتضرُّج وجنتيها بالخجل كلما وجَّه لها أحد

سؤالا، ومحاولاتها الدائمة للتهرب بعينيها الخضراوين أن تلتقيا بعينىّ أحد. أسرت رقتها الشيخ عبد الله وقال لفريد على بركة الله. وفى أبريل سنة ١٩٢٥ سافرت مارتين إلى مرسيليا شبه مخطوبة لفريد. صحبها فريد إلى الإسكندرية، ولوَّحت له بمنديل أبيض من فوق الباخرة وكان حول رقبتها إيشارب وردىّ يرفرف أيضًا فى الهواء، وكانت تلك هى النهاية.

رغم ذلك ظل الدكتور فريد يسافر كل سنة إلى فرنسا شهرا على الأقل لكى يرى مارتين. رفض أن يسمع أى حديث عن زواج آخر.

## - ٣ -

دفن الدكتور فريد همومه فى العمل. من بين الأبحاث التى نشرتها له الجمعية الملكية فى لندن بحث بعنوان «ملاحظات أولية حول العلاقة بين ضعف الإبصار والتعرض لضوء الشمس المبهر: حالات من صعيد مصر» وبحث آخر عن «ظاهرة توقف إفراز الغدة الدمعية (المفرزة للدموع) لدى الفلاحين المصريين فى قرية تونية». ولما عرف كأنبغ طبيب للعيون فى القاهرة كان من بين المترددين عليه فخرى باشا، رئيس جمعية أصدقاء الصحراء، والمقرب أيامها من السراى. كان يشكو من التهاب فى عينيه يبدأ مع الربيع، وعولج باستمرار على أنه رمد ربيعى دون جدوى. ولكن بعض أبحاث الدكتور فريد كانت قد توصلت لما عُرف فيما بعد باسم الحساسية واستمر العلاج طويلا. وفى أثناء العلاج تحدثا كثيرا عن الصحراء. كان فخرى باشا يسميها الجنة الصفراء. قال إنه ليس غريبا أن معظم

الرسل، عليهم السلام، ظهروا فى الصحراء أو عاشوا بها. قال إنها بستان الروح. وعندما كُتب الشفاء لفخرى باشا على يد الدكتور فريد، نجح فى وضع اسمه ضمن المرشحين لرتبة البكوية. وهكذا كان أصغر طبيب فى مصر يحصل على هذه الرتبة. ازدهرت عيادته بالوافدين عليها من أنحاء القطر حتى اضطر أن يعلن أن العلاج لديه بالحجز المسبق. ولم يكن قد سمع بمثل تلك النادرة فى مصر من قبل، فاكتسب هيبة وازداد الإقبال على عيادته.

ـ ٤ ـ

تراخت أبحاث الدكتور فريد. كان آخر بحث له فى سنة ١٩٣١ بعنوان «الذاكرة البصرية والمعرفة المتوارثة». لم تنشره الجمعية الملكية ولا غيرها من الجمعيات. وصلته من الجمعية الملكية رسالة مهذبة ولكنها حازمة. قالت الجمعية إنها أسعدها أن تتلقى بحثه بعد أن عرفت عنه فى دراساته السابقة غزارة المادة الميدانية والتوثيق العلمى الذى يستند إلى التجربة والمشاهدة. وإذا كان البحث الأخير يستند إلى حدس مدهش (يمكن أيضا أن تقرأ الكلمة: «باعث على الدهشة»..) فيبدو أنه مازال افتراضا أوليا جدا بحاجة إلى كثير من الجهد العلمى من الدكتور فريد، إلا إذا آثر هو بالطبع أن يتفرغ لدراسة أخرى أوثق اتصالا بطب العيون.

كان ذلك هو أيضا رأى الدكتور حشمت زميله فى جرينوبل وأعز أصدقائه. قال له بدهشة هذا بحث تقدمه لقسم الفلسفة يا فريد لا لطب العيون. هذا تكهن لا أكثر ولا أقل. كيف يمكن أن تختزن ذاكرة

البصر معارف من قبل الميلاد، من قبل تكون الصور وانطباعاتها أصلا؟ ثم سأله بقلق حقيقى ما بك يا فريد؟ فأشار الدكتور فريد إلى صدره. قال حشمت بشىء من الحذر: مارتين؟ فهز فريد رأسه وقال: لا. جال حشمت ببصره فى العيادة. لم يكن شىء فى موضعه. أدوات الكشف والمراجع العلمية وعينات الأدوية متناثرة فى كل مكان. الشىء الوحيد الذى يذكر بعيادة فريد القديمة (فريد الذى كان منذ جرينوبل وقبلها صارما فى نظامه)، هو الشهادة الجامعية المعلقة فى برواز فوق رأسه وإلى يسارها شهادة الزمالة من لندن وبينهما تلك اللوحة الغريبة. كانت لوحة لنقوش أو كتابة هيروغليفية فى صف أفقى وتحتها التاريخ: أبريل ١٩٢٥. عرف حشمت دائما من التاريخ أن تلك اللوحة لا بد وأن يكون لها علاقة بمارتين فلم يسأل صديقه عنها.

قال فريد بعد صمت: أتعرف يا حشمت ما هو أكثر شىء محزن فى هذه الأمور؟ أبشع ما فيها أنك تألفها. فى السنوات الأولى كان يحطمنى أن أرى مارتين ملقاة فى تلك المصحة تتطلع إلىّ ولا تعرفنى. تفتح شفتيها وتخرج تلك الأصوات الغريبة وأسنانها مطبقة على بعضها البعض فتنهمر دموعى. الآن أرى ذلك، أراها وفى عينيها رعب يطفو فجأة وهى تجلس ساكنة فتنتفض وتفر من أمامى. أراها وأرى آخرين معها فى تلك المصحة، كل ذهب عقله على طريقته فلا تنزل دموعى ولا تتحرك فى قلبى الشفقة. أسأل زملائى الأطباء فيقولون لى هذه حالات ثابتة. تلك كما تعرف طريقة للقول إنها حالات ميئوس منها. أبشع شىء يا حشمت ليس الحزن ولكن اختفاء الحزن.

قال حشمت لا تحسب أنى لا أعرف ذلك. عشت تجربة قريبة من تجربتك وفى نفس الوقت تقريبا لما ماتت أمى. قال فريد نعم، أذكر أنك أيامها سافرت إلى إفريقيا ثم رجعت وفتحت عيادتك فى الإسكندرية. قال حشمت نعم ولكنك لم تعرف كل شىء. بالنسبة للجميع كنت مسافرا فى مهمة علمية ولكن الحقيقة شىء آخر. أنت تعرف أن أمى عاشت أرملة بعد زواج قصير وغير سعيد. كان حلم حياتها كله أن ترانى طبيبا وكان حلمى أيضا أن أتخرج وأنجح فتفرح مرة فى حياتها التى لم تعرف الفرح. ولكن ما إن تخرَّجت وعدت حتى جاءها التيفود. كنت إلى جوارها كل دقيقة، أرطب جبينها بالثلج، أعطيها الدواء الذى أعرفه. أقبِّل جبينها وأقبِّل فمها كما لو كانت ستُشفى لو انتقلت تلك الحمى منها هى إلىّ أنا. ولما ماتت، لما تسربت من بين أصابعى العاجزة، سألت نفسى ما جدوى الطب؟ ما جدواه إن كان لا يستطيع على الأقل أن ينظم عشوائية الموت حين يأتى فى غير أوانه؟ أى فخر أن نعرف كل التشخيص ولا نعرف إقامة العدل؟ وقررت أيامها أن أنهى كل تلك اللعبة بطريقة معقولة. قرأت فى مجلة علمية عن بعثة من علماء الأنثروبولوجيا تسافر لأواسط إفريقيا فتطوعت فيها طبيبا. ذهبنا إلى قبائل لم تعرف غير الأطباء السحرة. هناك لامست المجذومين. لدغتنى حشرات كانت أسرابها الهائلة تطير فى الجو كأعمدة سوداء من دخان. أصابتنى الحمى وجاءنى التسمم ولكننى رغم ذلك رجعت.

قال له فريد: وماذا تعلمت من ذلك؟

فقال حشمت: لم يأتنى الموت لما سعيت له.

قال فريد: نعم ولكن ماذا تعلمت؟

قال حشمت: هل من الضرورى أن أكون قد تعلمت شيئا؟ عدت. هذا كل ما حدث.

هز فريد رأسه ولزم الصمت. ومع ذلك فربما فى تلك الأمسية، وهما يتبادلان ذلك الحديث، اكتمل قرار فريد بالسفر، بالخروج إلى الصحراء.

## - ٥ -

بينما تجرى الاستعدادات للسفر، سأل شدوان، الدليل الذى قدمه فخرى باشا للدكتور فريد، ما هى وجهتنا فى الصحراء؟ اضطر الدكتور فريد إلى الكذب وقال إنه يريد أن يستكشف آثار واحة فى الجنوب الغربى من سيوة قرأ عنها فى كتب التاريخ القديم. قال شدوان إنه قطع الصحراء من مطروح إلى السودان ويعرف طرق القوافل القديمة، يستطيع أن يدله على الآبار الموجودة والآبار التى نضبت. يعرف كل النخلات فى الطريق والكهوف التى تأوى إليها الذئاب، لكنه لم يرَ ولم يسمع من الأجداد عن أثر لواحة فى ذلك المكان. حذره شدوان من أنه إذا ترك طريق القوافل فى تلك المنطقة فهناك تيه فى الصحراء. قال إنه سمع عن رمال لينة متحركة وعن عواصف تحرك جبالا من الرمال طمرت إلى الأبد بعض القوافل التى ضلت الطريق. قال فريد إنه فهم كل كلامه وهو حر فى أن يصحبه أو يتركه ولكنه لن يعدل الآن بعد أن جهز للقافلة كل ما يلزمها. انتابت الحيرة شدوان وقال إنه أيا كان ما يبحث عنه هذا الطبيب المشهور،

وأيا كان ما يجعله يغلق عيادته فى القاهرة، ويمضى إلى هذا التيه فلا بد وأنه شىء مهم. قال لفريد إنه أرضى ضميره بما قال ولكنه معه إلى النهاية. كان شدوان قد اتفق على مبلغ كبير، ويتوقع مكافأة أكبر إذا ما اهتدى الدكتور فريد للشىء الذى يبحث عنه. ولما كان قد سافر كثيرا مع فخرى باشا الذى قابله لأول مرة فى مطروح، فقد اعتاد على التصرفات الغريبة لأهل القاهرة.

- ٦ -

تلك كانت قافلة الدكتور فريد: أربعة حمَّالين من رجال الصحراء اختارهم فخرى باشا. سبعة جمال انتقاها شدوان من سوق الجمال فى إمبابة بعد فحص دقيق لقوائمها وتجارب كثيرة لعدوها ولعاداتها. استبعد حتى الجمال القوية التى تأتى بتصرفات غريبة، والجمال الأكولة، والتى أظهرت تعلقا قويا بأصحابها. أحمال من التمر والسكر والشاى والخبز المجفف ومن الزيت. نصح شدوان أيضا بالسمن البلدى لأن رجال الصحراء يحبونه. لحوم مجففة ولحوم مقدَّدة ولبن مجفف. قرب للمياه، مرشِّح للمياه. أدوية للإسعافات الأولية، خرائط ومناظير مكبرة وبوصلات ومعدات علمية لقياس أشياء مختلفة شرحها له فخرى باشا: الضوء والطيف والمياه الجوفية والمسافات والأبعاد وغيرها. وهذا بالطبع غير الخيام والأغطية واحتياطى العلف للجمال. واحتفظ الدكتور فريد ببعض جنيهات ذهبية فى حزامه للطوارئ.

ولما ذهب فريد أخيرا للحصول على تصريح السفر من جنكنز

باشا قائد حرس الحدود، شرح له الضابط الإنجليزى، الذى يلبس طربوشا ويفتل شاربه الأشيب إلى أعلى، أنواع العقارب والثعابين التى تسكن الصحراء العربية والأمصال المضادة لها. قال له إن أخطر شىء بالطبع هو الدّفان الذى يسميه المصريون الطريشة (قال هذا بالعربية). ثم قال له إذا تأخر إعطاء المصل عن أربعين ثانية فقل للمصاب وداعا، ينتهى فى أقل من خمس دقائق. رفع جنكنز سبابته وقال: إذا رأيت فى الرمل ثقبا غائرا بحجم أصبعى هذا فتحسن صنعا يا صديقى حين تتجنبه، وقهقه عاليا ثم سأله بطريقة عابرة وهو يناوله التصريح عن سبب سفره. ولما قال له عن قصة الواحة هز رأسه وقال سمعت ذلك من فخرى باشا واندهشت. لم يسمع رجالنا عن هذه الواحة. بل إن اللورد هوارد المستكشف العظيم كان فى هذه المنطقة من عامين كما تعلم. لا أقول إنه مسح كل شبر ولكنه ـ وأستطيع القول إنه حسن الاطلاع ـ لم يشر من قريب أو بعيد إلى احتمال وجود هذه الواحة. أما لو انتهى الأمر بأن يكتشف طبيب عيون بارز واحة مجهولة فى منطقة لم تطأها قدم فسأقول إن طريق العلم يمر ببعض الغرائب.

ولما لزم فريد الصمت قال جنكنز باشا بابتسامة مفتعلة: سأقول لك بصراحة ما قلته لفخرى باشا. لولا علمى بأن هذه المنطقة غير مأهولة لاعتقدت أن السراى تحاول الاتصال برجال القبائل فى الغرب أو ربما بالإيطاليين فى ليبيا. لم لا؟ قال فريد بهدوء تستطيع أن تطمئن يا سعادة الباشا إننى لست من رجال السراى ولا من رجال الإيطاليين. أنا أحاول كما قلت أنت أن أحقق بعض غرائب العلم. وربما أكتشف شيئا آخر غير الواحة وله صلة بطب العيون.

لن يزيد ذلك غرابة عن رجل خرج يبحث عن الهند فوجد أمريكا. قهقه جنكنز باشا من جديد وهو يقول: بشرط ألا تكتشف لنا كارثة أخرى. وصافح الدكتور فريد بقوة متمنيا له «كشفا» سعيدا. مع ذلك لم يفارقه الشك. تابع فريدا ببصره وهو يخرج من مكتبه وقال لنفسه هؤلاء المصريون... لا سيما إذا درسوا فى فرنسا...

كـان عزاؤه أن شدوان ورجـاله فى سيوه سـيخـبرونه بكـل مـا يحدث.

## - ٧ -

فى أول الصبح، فى يوم من أواخر شهر نوفمبر ١٩٣٢ خرجت القافلة من إمبابة متجهة غربا، كانوا يلبسون جلابيب بيضاء وأغطية رأس مخططة يحيطها العقال، وانفرد الدكتور فريد بسروال أبيض عريض كالسراويل السكندرية وحذاء جلدى عالى الرقبة. ولما زعق شدوان ونهضت الجمال الباركة فجأة وهى تتبادل الصياح شعر الدكتور فريد بقلبه يثب خفيفا فى صدره. على اليسار كانت الأهرام الثلاثة متوازية وزرقاء فى نور الفجر. وبينما يخب الجمل ألقى فريد نظرة أخيرة وراءه على القاهرة. رأى قصور الزمالك المتناثرة وسط أشجار وحقول كثيرة. رأى مآذن بعيدة وعوامات تصطف متجاورة على النهر تحت أشجار الكافور. قال وداعا. حاذاه شدوان فوق جمله وقال له إنه يتمنى لو انتهوا من كل شيء قبل أن تبدأ زوابع الرمال فى أمشير، فقال الدكتور فريد ضاحكا، إنه يتمنى لو انتهوا قبل ذلك بكثير. وتنهد شدوان فى ارتياح.

في اليومين الأولين أحب الدكتور فريد الصحراء. كان ما يراه يختلف عن الصحراء التي يعرفها عندما يأخذ سيارته إلى الهرم ويعطي ظهره للمدينة متأملا بحر الرمال الذي لا يحده سوى الأفق. إحساسه بأن المدينة هناك، خلف ظهره، والسيارات التي تأتي بين الحين والآخر، وملامح هرم سقارة على البعد، كل ذلك كان يعطيه إحساسا بالألفة. بأن الصحراء امتداد لمدينته وحياته. ولكن منذ اليوم الأول، بعد أن غابت المدينة وراحت القافلة الصغيرة تشق طريقها وسط السكون المطبق بين السماء والرمال بدأ يعرف صحراء أخرى. يتابع حوارا بين الشمس والرمل. في الظهيرة يرى الصُفرة تلمع ويرى أقواسا مذهبة ومتتابعة ترتسم في الأفق البعيد، تتلألأ ببريق خاطف. وفي الغروب تنسكب في الوديان وبين التلال بحيرات وردية اللون وسط صُفرة الرمال الشاحبة. ثم في الليل تبرق وسط تلك الرمال السوداء ذرات متفرقة ومتباعدة كماسات مدورة دقيقة. تفاجئه انبثاقات الحياة، في شجيرات صبار تتعامد أسطواناتها الشوكية المركبة فوق بعضها البعض في توازن محيّر، في طيور تحلق بطيئة وداكنة في الفضاء. يرى نزق الرياح إذا تنحت تلاً كرأس نسر أو تصنع كثبانا متتابعة ومتماثلة كأمواج فائرة تجمدت بغتة في الفضاء. وكان شدوان ينبهه إلى تلك المعالم حتى قبل أن تظهر ليطمئنه أنهم في الطريق الصحيح. وفي الأيام الأولى تحمس الدكتور فريد وبدأ يدوّن تلك الملاحظات في دفتره. وكان ذلك قبل أن يكف عن كتابة

مذكراته. قبل أن يكتشف أن تلك أيضا ليست هى الصحراء. إن الصحراء ليست شيئا آخر غير الصمت. صمت ما قبل الخليقة. قبل أن تظهر أمواج البحر وجنادب الزرع وصيحات الحيوان وأصوات البشر. صمت لم يكن يقطعه حفيف أخفاف الجمال الرتيب ولكن أصوات الرجال وحدها هى التى تجرحه. صمت رده إلى نفسه (هل كان قد خرج ليهرب منها أم ليبحث عنها؟). رده إليها بالكامل وعاده وجه مارتين القديم الذى كاد ينساه. مارتين بقبعتها البيضاء التى تزيّن حافتها دائرة من زهور وردية. يسيران معا فى حديقة الجامعة هناك فى جرينوبل. يمسك يدها الناعمة الرقيقة ثم ينحنى فجأة ويقتطف وردة من حوض للزهور. تتلفت حولها بذعر أن يكون قد رآه أحد. تضم الوردة إليها وتقول: تعلم أن ذلك ممنوع. فيقول: نعم ممنوع إلا بالنسبة لك أنت. فى جنتك أنت تعيش الوردة فى صحبة أجمل. فتستدير إليه، تحيط عنقه بذراعها وتقبّله والوردة بين قلبها وقلبه. يأتيه خاطر فيقول لو أن هذه الوردة لا تذبل أبدا. تبتعد عنه فى انزعاج وتقبض على يده. تسأله لِمَ تقول ذلك؟ يقول أخشى إن جئت معى إلى مصر أن تشتاقى للعودة هنا، رأيت من ذلك الكثير هناك. تغرورق عيناها الخضراوان بالدمع. تسأله حين ترجع أنت إلى مصر هل ستشتاق للعودة هنا؟ فيقول: إن بقيت أنت. قالت: وكيف أبقى أنا إن ابتعدت أنت؟ أنا بدونك لا أكتمل. يدى لا تجيد الإمساك بالأشياء وعينى ترى الأشياء ناقصة، أنا بحُبِّك فقط أكتمل. لم أعرف من الرجال غيرك ولن يكون سواك. وكانت تقول ذلك وهى ترتعد بالفعل. فضمها إليه واكتملا وقال لن يفرقنا شىء.

وفى حديقة بيتها الريفى، إذ يمشى مع أبيها فى ذلك الغروب

يقول له أبوها طلبت أن أراك وأحمد الله أن عرفتك. كنت أخشى على مارتين دائما من الحب، وداعتها ليست من هذا العالم. ثم قال وهو يضحك: على الأقل لم ترثها من أمها ولا منى.نحن كما ترى فلاحون بسطاء وكل جيرتنا كذلك. كان لا بد أن يأتى طالب طبٍّ من مصر لكى تجد مارتين السلام. كنت أعرف دائما أنها ستحلّق بعيدا ولكنى سأكون مطمئنا عليها وهى معك فى مصر. سترعاها جيدا، أليس كذلك؟

وفى الصحراء كان وجه مارتين فى كل مكان..

فى التماعات السراب البعيد وفوق التلال وفى وميض النجوم.

وفى الصحراء كان فريد يصلى، كثيرا فى الغروب. ويبكى، وحيدا فى الليل.

## - ٩ -

فى سيوة لم يكن الكابتن باتريك يميل للمزاح مثل جنكنز. استقبل الدكتور فريد وشدوان فى مكتبه الواقع وسط حديقة من النخل وأشجار الزيتون وقال وصلتنى رسالة غريبة من القاهرة. يقال إنك تريد أن تمضى غرب طريق القوافل فهل هذا صحيح؟

كان يتحرك فى الغرفة بقميصه الكاكى والشورت القصير وهو يمسك فى يده اليمنى عصا لها طرف جلدى وبيده الأخرى منديلا أبيض. كان يجفف وجهه ورقبته باستمرار من عرق لا وجود له. ولما سمع رد فريد أشار هو أيضا إلى اللورد هوارد. قال إن هوارد نفسه

تراجع عن المضى غرب طريق القوافل. ضرب على المائدة بطرف عصاه الجلدى وقال هنا سيوة. هنا فى الجنوب الكفرة والفرافرة، ومضى الآن يرسم بعصاه الخريطة الوهمية بشىء من البطء وقال هنا فى الغرب جغبوب، وهى كما تعلم فى ليبيا. هذه كل الواحات فى المنطقة فأيها تريد يا دكتور؟

قال فريد بحزم: أعرف جيدا خريطة مصر وخريطة ليبيا يا كابتن. التصريح الذى معى من القاهرة يحدد المنطقة التى سأحاول اكتشافها، ولا بد أيضا أن تكون قد وصلتك صورة منه. غيّر باتريك لهجته قليلا. قال فى هذه الحالة يا دكتور أعتبر أنى أخليت مسئوليتى. هذا الدليل هنا يعرف أن المنطقة خطرة (هز شدوان رأسه مؤمِّنا على كلام الكابتن) ويؤسفنى أن أقول لك إنه لو حدث شىء، وهذا أكثر من محتمَل، فلن أستطيع إرسال بعثة إنقاذ. هذا يتجاوز سلطتى.

قال فريد أنت أوضحت نفسك تماما يا كابتن، وسأخرج فى رحلتى بمجرد أن ترتاح الجمال.

ولكن تلك على ما يبدو لم تكن النهاية مع باتريك. اتضح أن الجمال يلزمها وقت طويل لترتاح وترعى. وقال شدوان إنه يجب تغيير ثلاثة منها على الأقل، ولهذا فلا بد من انتظار سوق الجمال القادم.

وفى سيوة تزوَّج راضى، الذى ظل أعزب حتى سن الخمسين، من بدوية يتيمة ولكنها شقراء وجميلة. وعندما جاء يطلب إذن الدكتور فريد سأله: من عرفك عليها؟ فقال: شدوان.

سأله: ولكن أين أهلها؟ فقال راضى؟ هى يتيمة من نواحى

مطروح، ربوها هنا فى سيوة وتعمل مثلى فى البيوت. تحرَّى فريد عنها وعرف أنها تعمل فعلا فى بيت شيخ لا تشوب سمعته شيء، فأعطى لراضى نقودا ليدفع مهرا وليتجهز. و فى ليلة العرس أعطى هدية لراضى وعروسه، جنيهات ذهبية، وذبح ضأنا. شهد على العقد وحضر فى العراء رقصا بدويا وغناء.

كان بدر فى السماء فمشى وحده بعد العرس. لم يذهب إلى الاستراحة الحكومية التى يبيت فيها، لكنه سار مخلفا وراءه البيوت الطينية وأشجار النخيل والآبار التى تصنع حولها بحيرات صغيرة تتلألأ بنجوم بارقة فى الليل. مشى حتى واجه من جديد الصحراء الممتدة والقمر. وهناك مرة أخرى وجد مارتين التى أوشك وجهها أن يغيب عنه فى تلك الواحة الريفية. رآها فى القاهرة وهما يرقصان معا على موسيقى التانجو فى صالة شبرد. تقول له منذ تركت فرنسا لم أسمع الموسيقى كنت أسمع الآلات تعزف لكنها لا تصنع نغما، اليوم فقط يرقص قلبى بالموسيقى. يراها فى قطار الصعيد وهما فى طريقهما إلى الأقصر تتطلع بدهشة إلى النيل وإلى القرى الفقيرة على جانبيه، تقول كأنها قرية واحدة تتكرر كل حين. صنع النيل النموذج ورماه على جانبيه فى الشمال كما فى الجنوب. تلك وحدة مصر المقدسة. وفى الكرنك إذ تضع رأسها على كتفه وهما يعبران بهو الأعمدة ثم تتركه فجأة، تلف حول نفسها، تشرئب برأسها وتدور بعينيها مع تيجان الزهور العملاقة ثم تقول والدموع تملأ عينيها لمَ خدعتنى؟ ويسألها بدهشة: خدعتك كيف؟ فترد: قلت لى إننى يمكن أن أسأم البقاء هنا؟.. ما ظنك بى؟ لم أشعر أبدا أنى قريبة من حقيقة الحياة، من الفرحة ومن الجلال كما أشعر وأنا هنا. ثم جرت

إليه، تضع رأسها فى حضنه وتغمض عينيها كأنها لا تحتمل بالفعل كل ذلك الفرح. ثم قالت بصوت خافت: لا أعرف كيف سأحتمل هذه الشهور فى فرنسا قبل أن أرجع إليك هنا، لكى نتعمَّد فى النيل والمعبد ثم نكتمل.

وهناك فى الصحراء، وسيوة من ورائه قال فى همس: مارتين لمَ جئت بى إلى هنا؟

ولم يكن قد عرف الجواب بعد.

ـ ١٠ ـ

مضت أيام بعد أن تزوج راضى ولم يجد شدوان الجمال التى يريدها ولكن فى اليوم العاشر من بقائهم فى سيوة قال الدكتور فريد لشدوان إنه فى الصباح سيركب جمله ويخرج. سيمضى وحده حتى لو تخلّف الجميع. قال ذلك أيضا لراضى وألحَّ عليه أن يبقى مع عروسه، لكن راضى قال إنه سيتبعه ولو مشى فى الصحراء حافيا وفى الصباح كان عند جمله ومعه متاعه الضرورى، لكنه وجد أيضا شدوان وراضى وبقية الرجال.

كان فخرى باشا قد قال له هذا السفر نداء.

ـ ١١ ـ

لم يكن فى الصحراء جديد للدكتور فريد وهم يمضون فى طريق

القوافل بعد أن تركوا سيوة. لم يكن هناك ما يزعج. على العكس كان الجو فى النهار لطيفا وقد كسر الشتاء حدة الشمس ولاحظوا فى الطريق مزيدا من بقع العشب الأخضر تمتد وسط الرمل. قال له شدوان: هذه ضفاف سيول. وفى اليوم الثانى شاهدوا على البعد قطيعا من غزلان مرقَّطة ترعى. كانت دوائر كزهور بيضاء متفتحة وسط جلدها البنى. وما إن أحست بهم الغزلان من بعيد حتى فرت بعيدا واختفت ولكن تخلفت منها واحدة كانت تثنى ساقا أمامية وتحجل. هلل الرجال وأناخوا الجمال وجروا نحو الغزال الذى ظل يحجل ويتعثر حتى أمسكوا به. حاول فريد أن يوقفهم فقال له شدوان وعيناه تبرقان: هذا صيد حلال يا دكتور. وبسرعة كان الرجال قد أمالوا الغزال على الأرض وأشهروا سكينا. رأى فريد دمًا قانيًا يفرش الرمل الأصفر ويغوص فيه على الفور. رأى عينا مفتوحة ورأى لسانا يطفر. وتوقفت القافلة حتى شووا الغزال. ولما حملوا إلى فريد وهو يجلس فى ظل جمله البارك قطعة من الشواء شكرهم وقال إنه لا يأكل لحم الغزال، حاول راضى أن يفعل مثله لكن الرجال جذبوه وسبوه فى مزاح ثقيل فجلس معهم فى دائرة على الأرض وراحوا يمزقون بأيديهم لحم الغزال.

ولم يتكرر مرح الرجال بعد ذلك. كلما اقترب طريق القوافل من نهايته ازدادوا صمتا. لم يعد يتردد غير صوت الجمال التى راحت تجأر بأصوات كالنواح وهى تميل بأعناقها. وعندما تركوا الطريق المعروف وتوجهوا للغرب وتوغلوا مسيرة نصف يوم فى أرض وعرة بركت جمال الحمَّالين الأربعة على الأرض ورفضت أن تقوم. علا صراخ تلك الجمال وبات ينذر بالشر. وسمع الدكتور فريد شدوان

وهو يسب الرجال ويقول لهم أشياء بلهجتهم التى لم يكن يفهمها جيدا. سأله فريد عما يحدث فأشار بيديه متهما الرجال، قال: أولاد اللئام هؤلاء جعلوا جمالهم تعاشر نوقًا فى سيوة وهم يعرفون أن الجمال ستحن إلى نوقها وترجع بعد أيام. قال فريد: وما العمل؟ فلوَّح شدوان بيديه يائسا. قال لا فائدة. لن تقطع هذه الجمال خطوة بعد الآن إلا فى طريق الرجوع. قال فريد يمكنهم أن يرجعوا. سأله شدوان وأنت؟ فقال فريد سأمضى ولكن تستطيع أنت أن ترجع معهم لو أحببت. ولم يكن فريد نفسه يعرف الآن سبب إصراره على الرحيل غربا.

بان التردد فى عينى شدوان. ولكنه أخيرا مضى إلى الرجال واتفق معهم على شىء. أخذ منهم بعض الأحمال ووزعها على الجمال الثلاثة الباقية ثم عصَّب عيون الجمال الثلاثة. قال اتفقت معهم أن يبقوا كما هم إلى أن نرحل. الآن لن تراهم جمالنا ولكن لو أحسّت بهم يرجعون فسترجع هى أيضا مهما حاولنا. هيا يا دكتور يجب أن نرحل بسرعة فلن تمشى الجمال طويلا معصوبة البصر.

ومع ذلك ظلت الجمال الثلاثة تسير ببطء وهى تجأر، تدور بأعناقها وتلوى أشداقها. لكنها هى أيضا تبعت النداء.

## ـ ١٢ ـ

فى اليوم التالى كانت الصحراء كالحة. لم يبق هناك حتى اللون الأصفر. كانوا الآن يقطعون الطريق وسط تلال ترابية اللون كالرماد تسفى ذرات ناعمة تخز الجلد كالإبر ويمشون فوق أرض بنية بلون

الصدأ. لثَّموا كل وجوههم وغطوا عيونهم ليقوها من تلك الذرات دون جدوى. ولم يعد شدوان الآن يقود ولكنه يتبع الدكتور فريد الذى يحمل بوصلة ويتجه باستمرار إلى هناك: إلى الجنوب الغربى. كان فريد الآن قاسيا. لم يبال بانفجارات شدوان العصبية الذى راح يسب جمله طول الوقت. لم يستمع إلى توسلاته بين الحين والآخر أن ينيخوا الجمال ليرتاحوا قليلا. كان يوزع عليهما الطعام والماء بمقدار. لا يُبقى دقيقة أكثر مما يلزم للنوم ولكى ترتاح الجمال، وكانت الجمال قد كفت عن الصراخ وبدا فى عيونها الواسعة تعب ويأس. وفى الليلة الثالثة وهم يلتحفون منكمشين فى برد الليل القاسى سمع شدوان يقول لراضى سنهلك. فرد راضى باستسلام هذه مشيئته. قال فريد لنفسه خيرتكما أن ترجعا فلم تفعلا. إن كنتما أيضا تتبعان نداء فلا تشكوَا.

وفى اليوم الرابع كانت الأرض تصعد بالتدريج وتمتلئ بقطع صغيرة من الحجارة ومن الزلط. تحتم عليهم أحيانا أن ينزلوا من على الجمال وأن يخففوا عنها أحمالها. كانت الجمال تتعثر وترتكز على ركبها وتوشك أن تنزلق. ولما انتهوا من ذلك الصعود عادت الأرض تنبسط أمام عيونهم محيطا من رمال صفراء. رمال تمتد إلى ما لا نهاية وتتجمع أحيانا فى كثبان أو تلال. جلس شدوان على الأرض وهو يلهث وإلى جواره راضى وقال فى يأس عميق إلى أين تأخذنا يا رجل؟ لن نعرف الآن أن نعود حتى ولو أردنا.

ولكن لا رجعة الآن. البوصلة والمسير. لا يهم الجو الذى تغيّر فى تلك الأيام الأخيرة. لا تهُم وقدة الشمس اللاهبة التى تصبح فى

الظهر قرصا أبيض كالحديد المحمى. لا تهُم برودة الليل التى لا يجدى فى توقِّيها كل ما لديهم من غطاء. البوصلة والمسير، الرمال ثم الرمال. ولكن فى اليوم التالى لاح لهم فوق أحد التلال أو توهموا، ذلك الشخص النحيل الذى يلبس ثوبا أصفر مهلهلا ويمسك فى يده عصا. كان شدوان هو الذى رآه. صرخ بأعلى صوته.. يا رجل.. يا ولد.. يا زول. وعلى صوت ندائه التفت فريد وراضى إلى حيث يلوح بيديه فلمحا خيالا يختفى.

قال شدوان وهو يتجه لفريد سامحنى يا دكتور. سامحنى. لم أكن أصدق.. ولكن الآن.. وهذا الشخص.. لا بد أن هنا واحة.. هنا بشر.. هنا واحة.. دعنى أقبِّل يدك.. كان يتواثب فوق جمله.. تنزل من عينيه دموع فتخط مجريين وسط وجهه الملطخ بالتراب.

## - ١٣ -

وجَّهوا الجمال الآن ناحية التل.. داروا حوله لكى لا يشق صعوده على الجمال المجهَدة. ولكن عندما وصلوا لم تكن هناك واحة. تابعوا آثار الأقدام إلى أن اختفت فى موضع بدا وكأنه ممر كان مرصوفا بحجارة بيضاء بقيت آثارها. وهناك على البعد وفى نهاية ذلك الممر تجلت أمام عيونهم تلك العُمد الوردية، ذلك البناء الذى يمتد نقشا من حجر فى الفضاء اللانهائى..

شهق شدوان وقال بصوت لا يكاد يبين، لمَ أخفيت عنى ما تبحث عنه يا دكتور؟

كان المعبد جديدا كأنما انتهى العمل فيه بالأمس. قال شدوان بانبهار لفريد: كان مطمورا بالرمال ثم انكشفت عنه، فكيف عرفت مكانه؟ كان المدخل ناحية الشرق تصعد إليه خمس درجات من حجر ويتوسط أربعة أعمدة من جرانيت وردى، عمودان فى كل ناحية. وإلى يمين المدخل ويساره جداران كبيران نقشت على كل منهما صورة لفرعون نحيل ولكنه بدين البطن، فوق رأسه قرص الشمس يرسل أشعة حمراء متوازية كالمروحة على تاج الوجهين. وفى الداخل كان المعبد مسقوفا ولكنه منير، تتخلله الشمس من فتحة فى سقفه فتضىء بهوا مستطيلا. وعلى كل من جانبى البهو أعمدة عليها دوائر متعاقبة من رسوم حية الألوان. اندفع شدوان متجاوزا البهو وقال الذهب فى الداخل وتبعه راضى.

لم يكن ذلك كالمعابد التى رآها فريد من قبل. كانت هناك صورتان كبيرتان متقابلتان ومتماثلتان لذلك الفرعون على جدارىّ البهو المستطيل وهو يجلس على مقعد لا مسند له. جسده مصبوغ بلون نحاسىّ وعيناه محددتان بأقواس سوداء كأنهما مكحولتان. حول وسطه، وتحت بطنه مئزر أبيض شفاف يكشف عن ساقيه النحيلتين. كانت إحدى يديه متدلية إلى جانبه تمسك بمفتاح الحياة والأخرى ترتفع كأنما فى ضراعة أو استفهام. وكان قرص الشمس وأشعتها هناك أيضا فوق تاج الملك بلونيه الأبيض والأحمر، لم تكن هناك صور لأشخاص، عدا هاتين الصورتين الجداريتين. وتحت

كل منهما كتابة هيروغليفية من أنهر طويلة متجاورة. الرسوم على الأعمدة كانت لزهور ملونة ومتفتحة من كل نوع وطيور محلقة ذات أجنحة مزخرفة.

وحين أوشك فريد أن ينتهى من بهو الأعمدة ويعبر سلالم حجرية تفضى إلى جزء آخر من المعبد قابله شدوان وراضى. قال شدوان فى خيبة أمل: لا ذهب هناك. رجال واحتك يا دكتور أتوا على كل الذهب. لا شىء غير أصنام كثيرة بهذا الشكل. كان شدوان يحمل فى يده تمثالا صغيرا لنفس الفرعون ببطنه المتدلية قابضا بيده على مفتاح الحياة. ولما صعد فريد السلم وجد بالفعل ثلاث حجرات متجاورة: اليمنى خالية ولكنه تحتفظ برائحة عطرة. وفى الحجرة الوسطى صورة مذهبة لقرص الشمس تعلوها فتحة فى الجدار. وفى اليسرى تلك التماثيل الصغيرة للملك على قواعد أسطوانية. قال شدوان لفريد بلهجة مواسية وثلاثتهم يعودون إلى البهو: ولكن هذه الأصنام يا دكتور تساوى ذهبا أيضا. الأجانب يشترون أصنام (المساخيط) بالذهب. قال فريد: وأين نجد هؤلاء الأجانب؟ فمال شدوان وقال فى همس وكأن هناك من يمكن أن يسمعه: فى ليبيا يا دكتور. الإيطاليون يدفعون أى مبلغ تطلبه. هنا ستستولى الحكومة على الأصنام ولا تعطينا شيئا.

قال فريد لشدوان: أنا لن أذهب إلى ليبيا. حيرت ابتسامته شدوان فقال وهو يلوح بالتمثال فى يده: إذن كيف نتصرف فى هذه الأصنام؟

ولحظتها أظلم المعبد فجأة فصرخ راضى وصرخ شدوان وسقط

التمثال فى الأرض محدثا دويا. ولكن بعد ثوان دخلت الشمس المعبد من جديد من فتحة الغرب.

ـ ١٥ ـ

أناخت الجمال فى ظل المعبد وراحت تلوك أشداقها وتطلق أنينًا. كان ذلك هو الصوت الوحيد الذى تصدره منذ كفَّت عن الصراخ وصارت بدورها جزءا من الصمت.

دار فريد حول المعبد، لم تكن الأعمدة الخارجية التى بهرته أول ما رآها أعمدة حقيقية. كانت نحتًا لأعمدة وسط صخر جرانيتى مصمَت يصنع سورا حول المعبد. كانت أنصاف أعمدة تبرز من الصخر بين تجاويف غائرة ومتساوية: عشرة أعمدة فى كل جانب. وسأل فريد نفسه فى دهشة: كيف حدث ذلك؟ فى كل مسيرته فى تلك الصحراء لم يرَ صخرا من جرانيت فهل يعقل أنهم جلبوا هذه الكتل من الشرق وأقاموها هنا؟ ولماذا؟.. حول المعبد من كل النواحى كانت الرمال المنبسطة والخلاء فكيف أقيم؟.. لفتت نظره أيضا عمارة المعبد الذى كان خماسى الأضلاع على عكس كل المعابد المصرية التى رآها مستقيمة الزوايا. هنا كان البناء الرئيسى مستطيلا ولكن ظهر المعبد كان من ضلعين يلتقيان كرأس مثلث، وفى كل منهما خمسة أعمدة منحوتة. كان المعبد بالغ الجمال والرقة من الخارج وفى الداخل، ولكنه كان غريبا فما معناه؟

عاد شدوان وراضى قبيل الغروب وكانا يلهثان. قال شدوان لا

أثر لواحتك يا دكتور. لا أثر للرجل الذى رأيناه. لو لم أرَ آثار أقدامه لظننته شبحا. لا شىء غير هذه الرمال هنا وهناك. لا شىء غير تل ثم رمال فى كل مكان فمتى سنرحل؟

قال الدكتور فريد فى حسم: أنا باقٍ هنا. تطلع إليه شدوان صامتا، لكن عينيه قالتا ما يريد.

## - ١٦ -

فى الليل رحل شدوان وراضى، كان فريد يرقد داخل المعبد وسمع همسهما خارجه. سمع معظمه على الأقل. كان شدوان يقول: لن نأخذ غير هذه الأصنام والماء والتمر. وسمع راضى يسأل: وماذا أقول لأبيه؟.. وشدوان يقول: فى ليبيا.. ستصبح من الأغنياء.. ستلحق بك زوجتك.. ستكون شخصا آخر. وسمع راضى يسأل برهبة: فى هذه الصحراء؟ وشدوان يرد فى ثقة: سأتبع النجم وسنذهب إلى ليبيا. ولم يسمع كل سؤال راضى بعد ذلك، سمعه فقط يقول وإذا؟.. ولكنه سمع شدوان يرد: نقتله.

وصل إليه بعد فترة ضجيج جملين يتحركان. كممَّ شدوان الجملين فلم يصدرا صوتا ولكنه سمع ارتطام الأمتعة وخبب الأخفاف فى الرمل وهى تبتعد فتنهد فى ارتياح. جلس فى الظلمة وقال إن يكن هذا هو النداء فها أنا قد لبَّيت. إن تكن هى النهاية فلست أخافها وإن تكن بداية فسوف أتعلم.

بعد مدة خرج من المعبد وكانت السماء مزدحمة بالنجوم حول

هلال نحيل.. وجد جمله هناك ورأى قوائمه مقيدة. أنزل من فوقه الأحمال. كان هناك ماء قليل وتمر قليل وصندوق معداته وأمتعته. فك الحبل عن قوائم الجمل وأمسكه من مقوده ثم وجَّهه إلى الطريق. قال الآن أدرك صاحبيك قبل أن يفوت الوقت. وعاد إلى داخل المعبد. كان قد أضاء شمعة تصنع بين الأعمدة نورا مرتعشا وظلا مرتعشا فأطفأها ورقد فى الظلام والصمت.

## - ١٧ -

فى الرسالة الأخيرة قالت مارتين: قل لى لم صرت أخشى الضوء؟.. قل لى لماذا أسدل الستائر كثيفة فى النهار وأحب الليل؟.. لماذا صار النور يجرح عينى؟.. ستغضب منى ولكنى لم أذهب إلى امتحان الكلية الأخير.. لم أستطع. قل لى ماذا كان يمكن أن أفعل؟.. لم أستطع. غضب أبى فلا تغضب أنت. قل لى أنت يا نورى البعيد، أيها النور الوحيد الذى لا أخشاه (ولكن لماذا أنت بعيد؟).. قل لى لماذا كان يجب أن أذهب؟.. الآن وأنا أكتب إليك غنى طائر فى الليل. غرد الطائر فى الليل صوتا حزينا مثل قلبى. لا تغضب ولكنى أستحلفك، أقبل يدك النبيلة، أنت يا من تعرف، قل لى لماذا صرت أخاف الضوء؟.. كانت زهرة تريد أن تصبح ملكة الزهور ولكن.. لننس ذلك. هل ستقول لى؟..

وقبل أن يقول لها، قبل أن يحاول حتى أن يقول جاءته الرسالة الأخرى. قال أبوها أكتب لأنى أريد أن أحررك. جزء من نفسى كان

يعرف طول الوقت أن هذا سيحدث فلا تلُم نفسك. أنا أيضا أحتمل فى صبر.

## ـ ١٨ ـ

فى الصبح استيقظ فريد على شعاع يضرب وجهه. رفع رأسه فرأى حزمة من الشمس تنفذ من فتحة عالية فى الشرق فوق المدخل توازى فتحة الغرب. تمتم دون أن يدرى صباح الخير يا مارتين.

وكان ذلك الصباح فى المعبد هو اليوم الأول الذى لم يحلق فيه ذقنه. حرص منذ بدأت الرحلة أن يبدأ يومه بتلك الحلاقة. ولما شحَّت المياه صار يحتمل الموسى الجاف على جلده. كان يشجعه وهو وسط الرمال والخلاء أن يواظب على عادته فى المدينة. هذا الصباح مد يده وسط صندوق أمتعته وسحب الموسى. نظر إليه وأعاده إلى مكانه. أكل قليلا من التمر وشرب قليلا جدا من الماء. تجول فى المعبد. توجه إلى الجدار وأخذ يتأمل الفرعون بوجهه المستطيل وشفتيه المكتنزتين. وضع أصبعه على الكتابة المنقوشة تحت صورته. وقال أنا أعرف هذه الحروف ـ هاتان العينان المتجاورتان تنطقان الميم فى مارتين وهذه الريشة القائمة هى الهمزة أو الألف. ذلك ما علَّمه إياه صديقه عالم الآثار الذى أهداه اللوحة الهيروغليفية المعلقة فى عيادته «فريد يحب مارتين». نعم نصف الدائرة العلوى هو التاء فى مارتين، وهذا الخط بقمته الملتوية.. تراجع فريد فجأة. تطلع إلى عينىّ الفرعون ويده الضارعة. قال إذن فهذا هو ما تريد؟ أهذا هو؟ ولكن لم يبق وقت.. لم يبق ماء.

- ١٩ -

ذهب فريد إلى صندوق أمتعته، أخرج دفتر مذكراته وقلمه. استرجع اللوحة التى يحفظ رموزها. كتب حروف مارتين وفريد متفرقة. كتب حروف الفعل يحب. عاد إلى الحائط. قال لنفسه وحتى لو عرفت كل الحروف فكيف سأفهم المعنى؟ كيف سأعرف تصريف الأفعال؟ ولكن بينما كان يقول ذلك راح ينقل على الورق بسرعة وبدقة كل الحروف والرموز التى تنقصه، لم يبق وقت.

- ٢٠ -

فى العصر خرج فريد من المعبد. كلَّت عينه. كان متعبا وكان يائسا. قال استغرق ذلك الأمر من الفرنسى سنين طويلة على حجر رشيد. لا فائدة. كانت الشمس حارة والرمل ساخنا ولكنه دار حول المعبد. قال لم خمسة أضلاع؟.. نظر حوله. لا شىء يمكن أن يدله. لا شىء غير الخلاء والشمس. وهناك، على البعد، ذلك التل. وهناك عند التل.. ولكن هل هذا صحيح؟.. هل هو بالفعل رجل ذلك الذى يقف هناك؟.. ذلك الملثَّم الوجه المهلهل الثياب وبيده عصا؟.. ناداه مثلما فعل شدوان. قال يا رجل.. يا زول.. وظل واقفا. جرى فريد نحوه. لكنه توقف. تذكر شيئًا آخر. انبثق فى رأسه إلهام. قال لنفسه: جاء؛ تلك العلامة التى تتكرر وسط الكتابة. تلك التى تشبه شخصا دون رأس يحرك قدميه. لا بد أن تكون هذه العلامة هى الفعل جاء، نعم، لا بد أن تكون هى جاء أو يجىء وجرى عائدا إلى المعبد.

أجهده الوقوف الطويل وقلة الماء والأكل. كان يقف هناك فى المعبد، فى النور الوانى الذى يسبق الغروب، وشعاع من شمس حمراء ينفذ من فتحة الغرب، عندما تقرت أصابعه النقوش وقرأ بصوت خافت للمرة الأولى السطر الأول فى النهر الأول أنا.. الملك.. جئت.

ثم هبط الظلام.

## - ٢١ -

## - ٢٢ -

لم ينم جيدا فى تلك الليلة، جاءته مارتين وكان وجهها أسمر، كانت تشكو من عينيها. قالت له تنبت فيهما زهور.

استيقظ فى الفجر.خرج من المعبد وجلس على السلم، بالكاد بللَّ شفتيه بالماء.. لم تبق إلا جرعات قليلة. قال: لا بد أن تكفى. لم يسأل نفسه تكفى لماذا؟ ولكنه لحظتها رفع بصره ونظر ناحية التل. هناك رأى الرجل الملثَّم جالسا. تبادلا النظرات من بعيد ولم يتحرك أحد منهما نحو الآخر. سأل نفسه من أين يشرب هذا الرجل؟ ولما طلعت الشمس، رأى تحته فى الرمل لأول مرة ثلاثة ثقوب غائرة فى الرمل؛ كل ثقب بحجم الأصبع. فهم، ولكنه نهض ودخل المعبد الذى استضاء.

## ـ ٢٣ ـ

أمسك دفتره، راجع ما توصل إليه بالأمس. رجع إلى الحائط الأيمن الذى بدأ به. فى كل ساعات الصبح لم يستطع أن يقرأ غير أنا الملك جئت ولما المرأة.. ثم استغلق عليه النص.

تمدد على الأرض ونام.

## ـ ٢٤ ـ

طلعت شمس وغربت شمس.لم يستطع أن يفك من رموز الكتابة إلا القليل. لم تتجمع لديه سوى جمل متفرقة. وأوشك الماء أن ينتهى. استغنى عن الأكل لكى لا يحتاج إلى الماء. انطلق خارج المعبد. ذهب إلى التل الذى رأى عنده الرجل. صعده وانحدر منه. صنع حفرة واستخدم الأدوات التى أعطاها له فخرى باشا لكنه لم يجد ماء. وحين وقف أخيرا مجهدا يستند إلى المعول وتحت قدميه حفرته الخالية رأى على البعد رجلا مهلهل الثياب ومعه عنزتان. ولما حدَّق بصره لكى يتأكد.. لكى يعرف إن كان هو نفسه الشخص الملثَّم الذى رآه أكثر من مرة، كانت الصور الآن تترجرج أمام عينيه وكان يرى أشياء كثيرة ولا شيء، قال رأيت فى هذه الصحراء كثيرا من السراب. عاد يصعد التل ببطء ولما وصل قمته طالعه المعبد من بعيد: مسلة نائمة على الأرض، سهما مندفعا نحو مغرب الشمس التى مال قرصها الأحمر الكبير فى الأفق.

-٢٥-

فى اليوم الرابع كان يرتعش حين صحا من النوم. كانت شفته خشنة ولما حاول أن يمسحها بلسانه لم يستطع أن يخرجه من فمه. نهض بجذعه وارتكن إلى العمود. مد يده وأمسك قربة الماء فشرب كل ما بقى بها. قال ليكن. وبينما يسند ظهره إلى العمود تطلع بعينيه المتعبتين إلى الملك الذى جاء.. تطلّع إلى النقوش.. إلى الريشة المنتصبة إلى العين المفتوحة.. إلى الصقر والثعبان.. إلى الأهلّة والعقبان. استرجع كل السطور التى استطاع أن يقرأها وسط العبارات الكثيرة التى لم يفهمها. أسقط الجمل الناقصة والكلمات المتفرقة التى تجمعت لديه. حاول أن يصنع نصا مستقيما.

بدأ بالسطر الأول فى النهر الأول: أنا الملك جئت ولما المرأة ذهبت.. ولما تفرق الذين اجتمعوا حولى.. ولما وجدت نفسى وحيدا اكتملت فى تمامى. ولما كنت أنت إلهى وأنا صفيُّك.. أنت النور وأنا صدى النور.. أتملى فى ذاتى فأراك وأتملى فيك فأرانى فإنى بعيدا عن الآحاد جئت لنكون واحدا أنا وأنت. الآن ولم يبقَ وقت وبقى الأبد. الآن أناجيك فتعرفنى. أدون سرى بعيدا عن الأعين لعينك أنت فتعرفنى، أتطلع إلى قرصك اللامع الذى يرقب من السماء كل شىء وأنقش على الصخر سرى: إنى حزين.

كانت عين فريد كليلة. كان جوفه مريضا لكنه مشى بعينه على الطلاسم التى لم يفهمها وتوقف عند السطر الأخير فى النهر الأخير

وقرأ: ولما وجدت كل فرحة تلد نهايتها وجدت فى فرحتك أنت المنتهى.

ـ ٢٦ ـ

وجد فريد صعوبة فى أن يمشى حتى الحائط الآخر. كان يستند إلى الأعمدة. ولما وصل إلى هناك، ولما استطاع أن يقرأ السطر الأول: أنا الملك القوى جئت، صرخ فريد بكل القوة التى بقيت فى داخله: أيها الكذاب. وتردد داخل المعبد الصدى الكذذ ذ ااا ب ب ب.

ـ ٢٧ ـ

خارج المعبد جرى. كان يكرر أيها الكذاب. كان يخلع حذاءه العالى الرقبة. كان يقول ينتهى ذلك كله فى خمس دقائق.. فى أقل من خمس دقائق.. داس بقدمه على ثقوب بحجم الأصبع. راح يثب فوق تلك الثقوب وهو يكرر تعال .. تعال..ولما ارتعش جسمه كله، ولما سقط أخيرا على الأرض، لم يعرف إن كان الثعبان هو الذى لدغه أم لا..

ـ ٢٨ ـ

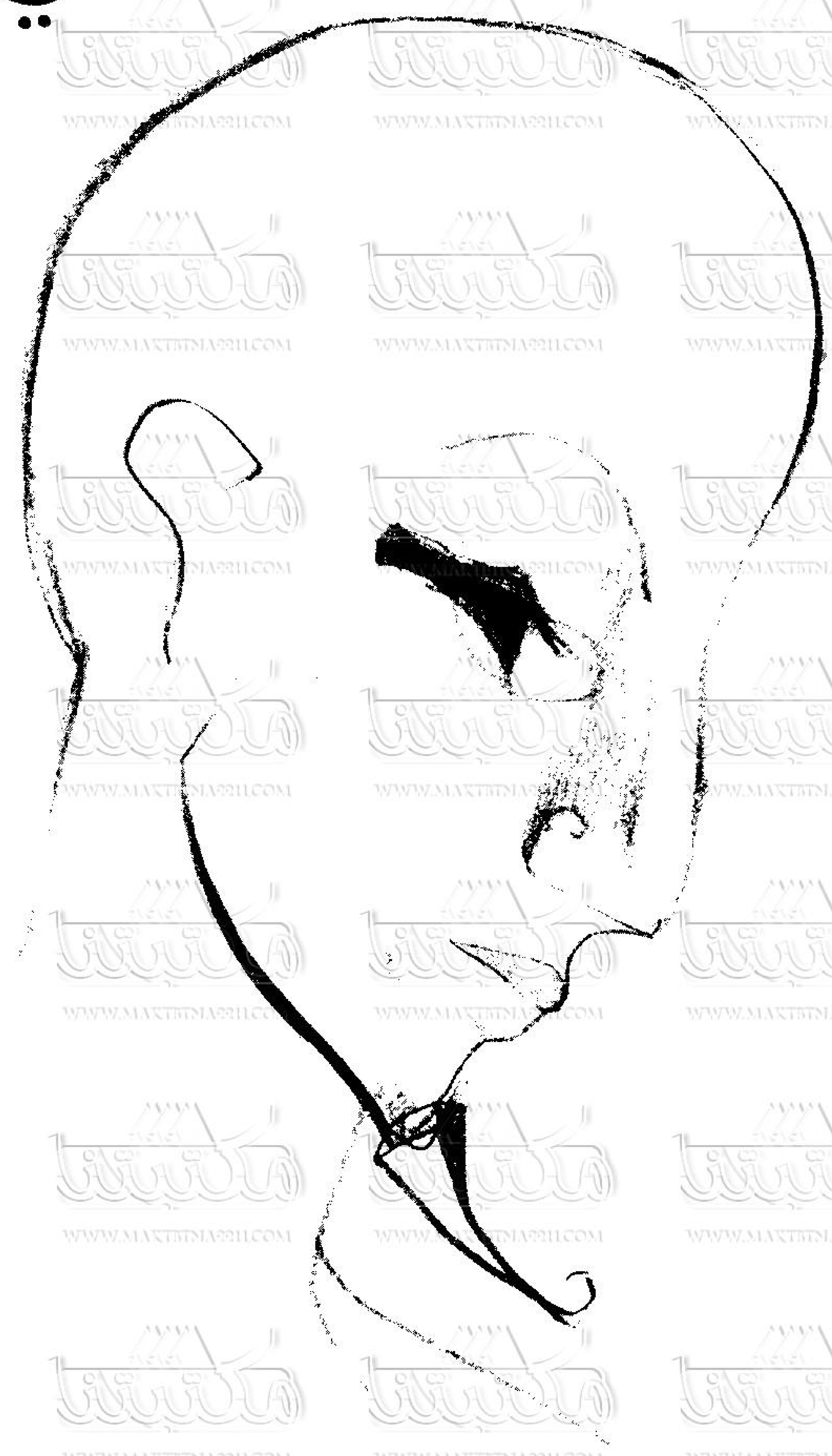
كانت مارتين تمسح بيدها على جبينه. قالت: أعطنى يدك، قالت

سنشرب معا من هذا النبع. كانت يد تسند كتفه وقرب فمه كان إناء من فخار فيه لبن. رفع رأسه فرأى عينين سوداوين تطلان عليه من وجه ملثَّم. أشارت العينان إلى إناء الفخار، وقال صوت خافت اشرب. ستكون بخير. ولما مال برأسه رأى ساقين سمراوين مقرفصتين إلى جانبه، ورأى قدمين متشققتين تعلق بهما ذرات من الرمل. ولما رفع رأسه إلى الوجه الملثَّم سأله: من أنت؟!

(١٩٨٥)

# محاكمة الكاهن

## كاي - نن



- ١ -

تلزم مقدمة. ففى زمن الفتنة التى رافقت حكم آخن ـ آتون مبتدع عبادة قرص الشمس وما إلى ذلك، كان الكاهن كاى ـ نن من أشهر الشراح والمنظرين للعقيدة الشمسية، حتى لقد أنعم عليه أيامها بذلك اللقب الرفيع: «متجلى الأنوار المستند بقوة إلى ذراع مختار الإله آتون» (أى ذراع آخن ـ آتون نفسه). واستحق كاى ـ نن هذا الإنعام السامى نتيجة بحثه اللاهوتى الذى ألقم كهنة آمون حجرا والمعنْوَن «واحدية الأقداس الضوئية من رع إلى آتون». وفى هذه الرسالة ذكر كاى ـ نن مدينة أون، مهبط وحى الإله القديم رع، وتحدى من يأتيه بدليل على أن رع كان يُعبد فى أيام أولئك الأسلاف الطاهرين فى أون على أية صورة أخرى إلا باعتباره عين السماء الحمراء.

الشىء الذى حيّر المعاصرين أيامها مع ذلك، أن كاى ـ نن نفسه هو الذى رفع قبل الفتنة إلى الفرعون آمون ـ حتب الثالث، والد آخن ـ آتون، رسالته البردية المعروفة عن البن بن ( تلك القمة الهرمية الشكل فى أعلى المسلة) والتى أثبت فيها أن البن بن هى رمز الحقيقة الأزلية المحجوبة من الآلهة، وأن الأرباب تتقبلها بثواب، قال كاى ـ نن: «يفوق ثواب أى قربان، ولو كان ذبح ألف ثور مُسمَّن على علف

إقليم واست، أو بناء عشرة معابد بحجارة مجلوبة من بلاد بونط».

وكان من نتيجة هذه الرسالة بالطبع أن زُرعت كالنخيل فى أرض مصر (أرض «تميرة» المحروسة كما كانت فى تلك الأيام) آلاف المسلات. منها تلك المسلات الرائعة التى كسيت بن بناتها بالذهب فى أرض معابد طيبة ودشنها آمون ـ حتب نفسه رافعا للآلهة الصلوات. ومنها المسلات التى تنافس فى إقامتها حكام الأقاليم مع كسوة بن بناتها بالفضة. بل قيل إن الفقراء كانوا ينصبون أمام بيوتهم عصيًا من الخشب تتأرجح فوقها بن بنات نحاسية متواضعة اجتلابا للبركة والثواب.

سيدافع كاى ـ نن عن نفسه فيما بعد باقتباسات من هذه الرسالة ذاتها. أما الآن فتكفى هذه السطور لإيضاح الجو الذى أتى فيه بكاى ـ نن من السجن الكائن فى أرض المعابد فى طيبة وذلك بعد قمع الفتنة، واستتباب الآلهة القديمة على عروشها التى خلعها منها آخن آتون. كان على كاى ـ نن أن يقف أمام كهنة آمون فى طيبة، التى تسمى ذاتها (بر آمون).

ـ ٢ ـ

اتخذ كاى ـ نن فى المحاكمة موقف الهجوم فى أول لحظة. فبينما جلس الكهنة الثلاثة القضاة على مقاعدهم المذهبة وما إن شرع الجالس القرفصاء فى تدوين وقائع الجلسة حتى صرخ كاى ـ نن بصوت كالرعد:

ـ أيها الكهنة الكذبة..

أجفل القضاة. وترتب على ذلك أن تم ضربه بالمقرعة المقدسة. ولما نزف الدم من أنفه أعيد إلى السجن.

ـ ٣ ـ

فى غرفة الكاهن الأكبر سمنخ ـ آمون، التى يعبقها البخور وتطل على بحيرة المعبد المقدسة يحفها النخيل والجميز، جلس الكهنة الثلاثة فى هيئة مداولة. كانت رءوسهم حليقة تماما يلمع جلدها الناعم مثل ثياب الكتان البيضاء التى يلبسونها والأساور الذهبية المحلاَّة بالجعران الفيروزى فى معاصمهم.

كانوا ثلاثتهم منفعلين بعد المحاكمة العاصفة. ومع ذلك احتفظ سمنخ ـ آمون بهدوء ظاهرى. نظر الكاهن الأكبر (ولقبه الرسمى المتطلع دائما لأنوار آمون فى الشرق والغرب، ولا يقصد بما يلى أية سخرية منه ولكنه كان بالفعل أحول) نظر ناحية الآخرين (ربما) وقال ما العمل أيها المبجلان؟

قال تريبيت ـ آمون كاهن التراتيل الأكبر(ولقبه الرسمى النافخ بعيدا ليشنف أسماع السماء) إن جرم كاى ـ نن جرم مشهود. فهو ليس مثل الزنادقة العاديين الذين ظهروا مع آتون. ولكنه كان كاهنا معروفا لآمون ثم ارتد عن إلهه. لذلك لا يكفى إعدامه عن طريق قطع الأطراف العادى مثل بقية كهنة آتون. لا بد فى حالته بالذات أن يكون أمثولة وعظة لكل من تسول له نفسه الكفر بآمون، ولهذا

فهو يقدم الاقتراح التالى: يوضع كاى ـ نن فى ماء مملَّح جيدا لعدة أيام حتى ينتفخ جسمه، ثم يوضع يوما فى شمس حامية حتى يجف، وبعد ذلك تقطّع أطرافه ببطء بسكين مُثَلَّم الحد إلى أجزاء صغيرة ثم تشوى ويرغم على أكلها. وقبل أن يلفظ أنفاسه تماما يُقلى فى زيت مغلى ثم يُحرق جسده إلى أن يصبح رمادا.

كان كاهن المخازن باط ـ آمون يستمع ويهز رأسه (من أحزان حياته أنه ليس له لقب رسمى. واقترح مرة على مجمع الكهنة مراعاة لمسئولياته الرفيعة كحافظ لكنوز الإله ومشرف على تموين الكهنة وعلى مكتبة آمون، اقترح أن يطلق عليه لقب موجز هو: عين آمون المتدلية على الأرض، ولكن المجمع استقبل اقتراحه بفتور وصمت تام وظل فقط: كاهن المخازن).

قال باط ـ آمون إنه يثنى على فتوحات زميله النافخ بعيدا ويعتبرها تجليات آمونية لا يستغرب صدورها من مبجَّل مثله ولكن له ملاحظات قليلة.

فهو يرى أولا أن يكون شّىُ الأطراف سابقا على بترها، وثانيا فهو يتحفظ على قلى بقاياه فى الزيت لأن ذلك يعتبر تبديدا غير مفيد لزيت الآلهة، ويستأذن فى حرقه وسط أعواد الذرة الجافة. ويستأذن أخيرا أن يتم حرقه قبل أن يفقد وعيه تماما لا قبل أن يلفظ أنفاسه تحقيقا للغاية المنشودة. ثم رفع أصبعه وقال ولكنى أتساءل هل تأخذنا به الشفقة مع ذلك؟ هل ننسى أشد عقوبة؟

تطلع إليه الآخرون فى استفهام فقال ببطء وهو يضغط على

كلماته: أقترح بصفة خاصة، أيها المبجَّلان أن يحرم تحريما باتا دفن رماده فى أى أرض مباركة بشعائر الآلهة المقدسة. تلك هى العقوبة الحقيقية.

اغتبط تريبيت بهذه الإضافات. تهللت أساريره، هنَّأ زميله بشدة. قال إنما تلك هى التجلّيات الآمونية الصادقة. وهو يضم صوته لكل كلمة فيها، وهو يعتذر لأنها فاتت عليه. ثم حيا زميله بمد ساعده فى وضع أفقى مرتفع قليلا مع بسط كفه (وهى تحية آمونية معروفة خاصة بالكهنة) وقال: هائل باط. هائل باط.

فردَّ باط على استحسان زميله بمد ساعده بالمثل وقال فى تواضع: هائل آمون.هائل آمون.

ولكن الكاهن الأكبر كان يتابع ذلك فى صمت، ولما انتهيا هز رأسه وقال فى حزن: يبدو أيها السيدان أنكما لا تدركان خطورة الموقف.

كان يميل برأسه بعيدا ويتطلع فى أسى إلى الشرق والغرب.

## ـ ٤ ـ

حتى فى أيام فتنة آخن ـ آتون لم يمس أحد الكاهن الأكبر سمنخ ـ آمون. كان معروفا بزهده وسخائه وكان محبوبا من الشعب. فقد كان بين الحين والآخر يقيم ولائم أمام المعبد يقدم فيها كثيرا من البط والأوز المشوى الذى يُربى فى بحيرات المعابد المقدسة فضلا

عن بقايا ثيران القرابين التى تقدم للشعب بعد نزع قلبها وكلاويها وأظلافها المنذورة للإله.

وكان آخن ـ آتون من الحصافة بحيث ترك سمنخ ـ آمون فى حاله. ولكن رئيس الشرطة كان من الحزم بحيث حدد إقامته فى داره مع تحذيره من الترويج للتطلع لأى أنوار آمونية، ومن قبيل الاحتياط وضع رئيس الشرطة حول داره ٤٢ من الجواسيس الأشداء، اختيروا بعناية من ذوى السمع المرهف الماهرين فى تسلق حوائط البيوت، فضلا عن جهلهم بالهيروغليفية قراءة وكتابة لكى ينقلوا ما يسمعون دون زيادة أو نقص، وهذا، مع مضاهاة أقوالهم على أقوال خدم المنزل والمترددين عليه من الزوار. أما سمنخ نفسه فلم يكن بحاجة إلى هذه التحذيرات أو الإجراءات. لزم الرجل داره ولزم الصبر متمثلا بالمثل المصرى القديم ما طار أى إيبيس وارتفع إلا كما طار وقع.

وهكذا فإنه عندما وقع آخن ـ آتون واستردت أنوار آمون بهاءها وحرية التطلع إليها، لم يشعر بأى شماتة فى الفرعون المارق ولا فى كاى ـ نن نفسه. بل كان فى الواقع حزينا لأن كاى ـ نن كان زميله أيام الدراسة فى معهد الكهنة وكانا فى القديم صديقين. كل ما كان سمنخ يريد أن يثبته هو أن آمون عظيم وأن الآلهة القديمة وحدها هى الحقيقة.

ولكى يُطمئن سمنخ الكاهنين المبجَّلَين تريبيت وباط قال لهما إنه لا يمانع فى توقيع أى عقوبة على كاى ـ نن. ولكن هذه ليست هى المسألة. ثم قال أيها المبجلان الجليلان أنا أفهم ما يسعى إليه

كاى ـ نن، إنه لا يهتم بما نقوله أو نفعله نحن ولكنه يخاطب من بعدنا الأجيال. أنت أيها الكاهن باط تعرف خيرا منى أن قوانيننا المقدسة تحتم تدوين محاكمات الكهنة على البرديات وحفظها فى مكتبة المعبد. فكيف ستنظر الأجيال إلى كهنة آمون إن كان كل ما فى بردية المحاكمة هى عبارة أيها الكهنة الكذبة؟ ليست هناك مشكلة فى أن نعدمه ونشوى أطرافه قبل بترها أو بعده. ولكن أين سنخفى وجوهنا من آمون يوم نلقاه؟ ماذا سنقول وفى مكتبة معبده تلك البردية المشئومة؟

ابتسم باط آمون فى سره. لم يقل له أن برديات محاكمات الكهنة بالذات، تستخدم هى وبرديات جرد عهدة المعابد للتدفئة فى ليالى الشتاء، تصنع نارا لطيفة ولا يبقى لها أثر، ومن هنا فلا تثريب عليهم من توقيع العقاب الناجز على كاى ـ نن وإعدامه توًا. خشى باط من مغبَّة البوح بمثل هذا السر لرجل فى سذاجة سمنخ ـ آمون وتمسكه باللوائح، فاجتهد ليكتسى وجهه بالجد وهو يسأل: وإذن، فإلام ترمى أيها الكاهن الأكبر؟

قال سمنخ ـ آمون لا بد من إعطاء الفرصة لكاى ـ نن لكى يقول ما يريد، ولا بد أن نفحمه بالحجة لكى يرضى عنا آمون، ولكى تبقى صفحتنا ناصعة أمام الأجيال.

نظر باط إلى تريبيت نظرة لها مغزاها وهو يكرر وراء الكاهن الأكبر «الأجيال!!».. فنظر تريبيت إلى باط بنفس المغزى.

كظما غيظهما.

ولكن بالكاد.

أكدت وقائع المحاكمة ما كان يساور باط وتريبيت من شكوك. كان كلام كاى ـ نن مختلطا ومشوشا. لا يستقيم مع أى منطق. فما معنى إصراره مثلا على أن رع هو آمون هو آتون هو حورس؟.. وما معنى قوله إن ذلك هـو الإله الذى نلقاه فى الأفـق الغربى وكيف يقـول إن الإله ينظر إلى قلب الإنسان دون أن ينظر إلى ما فى مقبرته من قرابين؟ ولكن شكوك تريبيت بلغت ذروتها حين قال كاى ـ نن إن هذا الرع آمون آتون حورس لا يفرح ببناء معابد كثيرة ولكنه يفرح حين يفرح بشر كثيرون.

اعتاد تريبيت أن يرى كاى ـ نن شخصا مضحكا بصفة عامة. فقد كان طويلا، نحيلا كالعصا، غامق السُّمرة شارد النظرات، ذاهلا فى أغلب الأحيان. أما الآن فكان يقف بين حارسيه جاحظ العينين وقد نبت شعره الذى حُرم من الحلاقة الكهنوتية كأشواك القنفذ فوق رأسه، وظهرت كدمات زرقاء فى جبينه كما التصق ثوبه على جسمه بدماء متجلطة فى المواقع التى تم فيها تأديبه بالمنتوءة (وهى المقرعة المقدسة الخاصة بسجن المعبد، وسميت هكذا لوجود نتوءات صلبة فى قضيبها المقدس). وكان يتكلم بمنظره هذا عن فرح إلهه بفرح البشر وهو يشوِّح بيديه فبدا لعينى تريبيت مثل مجاذيب الإلهة حتحور الذين يسيرون خلف المواكب فى عيدها ويأتون بحركات غريبة.

هنا قرر كاهن التراتيل أن يمسك زمام الموقف بيده فقال مخاطبا المتهم:

ـ أيها المجرم كاى.. فى أى شهر من شهور السنة نحن؟

فنظر إليه كاى ـ نن لحظة وقال: أليس هو شهر بشنس، لماذا؟

فالتفت تريبيت إلى باط وقال هامسا تصور أنه يعرف!!

استأذن باط أن يواصل فحص المتهم وقال له: أيها الكافر كاى.. تقول إن رع هو آمون هو آتون هو حورس، أليس كذلك؟ فقال كاى ـ نن: نعم، قال باط: عظيم. ففى هذه الحالة تكون الإلهة المقدسة (موت) زوجة مَنْ فيهم؟.. هل يعقل أيها الكافر أن تكون زوجة للآلهة الأربعة، أم تظل كما نعرفها زوجة لآمون المقدس وحده؟ وفى هذه الحالة، أيها الغبى، هل يظل الآلهة الثلاثة الآخرون عُزّابا؟.. انطق.

لم ينطق. ولما أفحم باط كاى ـ نن رجع فى مقعده ورفع ساعده مشخللا بأساوره، ثم ضحك.

ولكن تريبيت لم يكتف وواصل اختباره لعقل المتهم، قرر أن يختبره فى الحساب وهو مجد الكهنة فقال: أيها الولد كاى، دجاجة تضع ثلاث بيضات كل يومين وبيضة فى اليوم الرابع ثم يومين لا تبيض وفى اليوم الثالث تضع بيضة. فكم بيضة نجمعها منها فى الشهر إن كان الثعبان يلتهم منها فى الأسبوع أربع بيضات؟

ولما بدا الوجوم على وجه كاى ـ نن لاحقه باط فقال مسألة أسهل أيها الزنديق ليس فيها حساب: هل يجوز أن نقدم للإله قربانا من ثور إذا كان ظلف الثور قد تلوث فى....

ولكن هنا كان الكاهن الأكبر سمنخ هو الذى صرخ كفى... كفى...

ثم حاول أن يسيطر على صوته وهو يقول كفى أيها الـ... ا لـ... المبجَّلان.

نظرا له باستغراب. أما هو فكان ينظر نحو الكاتب المقرفص الذى ينقش على البردى كل شىء...

الْتَاعَ قلبه وهو يفكر فى الأجيال المقبلة.

## - ٦ -

قال سمنخ - آمون مخاطبا كاى - نن:

- أيها الكاهن...

فهبَّ باط وتريبيت واقفين.

لم يستطع تريبيت ذو الصوت الذاهب بعيدا أن يُخرج الكلمات، فقال بصوت مختنق: كيف أيها الأكبر تقول لهذا المجرم يا كاهن؟

ولكن سمنخ قال بحزم: الكاهن كاهن حتى يتم إعدامه.. اجلسا.

فجلسا ولكنهما شخللا بالأساور شخللة لها مغزاها.

وواصل سمنخ: أيها الكاهن كاى - نن تقول إن رع هو آمون هو آتون هو حورس فما المانع إن سميناه نحن آمون؟

فقال كاى - نن: بالحق تنطق أيها الكاهن.. وما المانع أن أسميه آتون؟.. المهم أن يظل واحدا.

فقال الكاهن الأكبر: ولكن فرعونك آخن..

وهنا صرخ باط وتريبيت فى نفس واحد: الكافر آخن.

فهز سمنخ رأسه وقال: الكافر آخن، هذا الآخن أغلق معابد آمون وغيره من الآلهة وهو يعرف أن الشعب يحبها منذ الزمن القديم. حتى أنت أيها الكاهن كاى كنت تعرف قدر رع وآمون المقدسين. ألم تقل فى رسالتك أن البن بن محبوبة رع وآمون؟

هلل باط وتريبيت. رفعا ساعديهما. شخللا بالأساور. قالا بوركت أيها الكاهن الأكبر. قالا أفحمت الذى كفر.

التفت كاى ـ نن برأسه وقال سيدى انظر من هذه النافذة. سترى هناك ثلاث مسلات نصبها آمون ـ حتب. ها هى فى النهار تعكس بن بناتها الشمس المقدسة ـ تنشر النور المتلألئ فوق طيبة. يبارك ألقها الناس جميعا دون تفريق فيسجد قلب المؤمن لنور الحق. وفى الليل حين تلمع من بعيد فهى تذكر الغافل أن نور الإله لا يغيب وأنها تحتضن فى قممها الفجر الآتى بالضياء الجديد. إلى جوار تلك المسلات سترى المعبد الذى بناه آمون ـ حتب بأعمدته السامقة. كم هو جميل أيضا. حجارته الوردية أتت من الشرق البعيد، ولكن قدس أقداسه مخبوء فى الظلام فى الرهبة والخوف، ليس ضياء مبذولا للجميع.

هتف باط بعصبية: ها قد ثبتت زندقته. فلنقتله فى الحال.

لكن سمنخ قال بصوت آمر دون أن ينظر إليه: صمتا.

أما كاى ـ نن فواصل وكأنه لم يسمع شيئا.. من خلف ذلك المعبد

يا سيدى، ولن تراه من تلك النافذة، المعبد الكبير الذى بناه تحتمس الثالث وجاءت حجارته من الشمال. وإلى يمينه معبد حتشبسوت الرائع وحجارته من النوبة. حملها ألف مركب وشيَّدها خمسون ألف ذراع. فقل لى يا سيدى من حجارة معبد واحد من هذه المعابد كم مسلة تُبنى لكى تنشر نورها وبهجتها لكل الناس؟

صرخ باط أيها الزنديق الملحد.. أتستكثر على الآلهة معابدها؟

ضرب تريبيت كفا بكف وقال إن لم نقتله قتلا ناجزا فكيف نأمن نقمة الآلهة الجبارة؟ ألم يحن الوقت لكى نجعل منه عظة لمن تحدثه نفسه أن يكفر بآمون الخفىّ الأسماء، ذى النقمة والصاعقة؟..

ولكن فى تلك اللحظة ذاتها قال كاى ـ نن قولته التى دوَّت فى القاعة كالصاعقة. قال كاى ـ نن:

ـ أيها السادة. هل تحتكمون إلى ريشة ماعت؟

فحل فى القاعة الحارة سكون ثلجىّ.

حتى الكاتب الجالس منكفئا على برديته رفع رأسه لأول مرة ونظر إلى كاى ـ نن.

ـ ٧ ـ

قال حكماء الأجداد: لا يجرؤ مذنب ولا حتى برىء أن يحتكم إلى ريشة الإلهة ماعت. تلك الجميلة التى ظلت مقدسة حتى فى أيام الفتنة وإن خفضت رتبتها قليلا بحيث لا تنافس آتون. ومع ذلك

فـإن آخـن ـ آتون نفسه كان يبجِّلها. فهى العدل وهى الحقيقة. هى الطريق المعتدل الذى لا يميل قيد شعرة..

هناك، فى محكمة الأفق الغربى، يوزن قلب المتوفى بعد أن يجتاز أهوال العالم الآخر أمام كفة توضع فيها الريشة المرشوقة فى شعرها الأسود. فإن استقام الميزان نجا وفرح بلقاء أوسيريس. وإن مال الميزان التهم الوحش (آموت) القابع تحت الميزان القلب الضال وحُرم من جنة البعث إلى الأبد. أما أن يطلب إنسان فى هذه الحياة الدنيا أن يوضع على ميزان ريشتها فى الأرض.. فأية جسارة!.. يتوقع أن يجلس كله على كفة الميزان وريشة ماعت على الكفة الأخرى ثم يستقيم الميزان؟ كيف؟ لا بد أن يكون قلبه أخف من قطرة الندى فى الفجر وأنصع.

مع ذلك كان باط آمون هو أول من استرد نفسه.ابتسم فى سره مرة أخرى. تذكر أن ريشة الإلهة وميزانها جزء من عهدته. تذكر أنه يعرف أية ريشة يستخدم وأى الكفتين يجعلها تميل.

ولكن ابتسامته غاضت حين قال كاى ـ نن: إن وافقتم أيها السادة فأنا أطلب الاحتكام إلى ريشة الإلهة فى معبدها فى مدينة أون.

كان باط يعرف أنه ليس له هناك أية سلطة .بل هناك لا سلطة لأحد غير كاهن ماعت الذى تنقض عليه صاعقتها فى الحال إن حاد عن طريقها أو تلاعب فى ميزانها.

تبادلوا فى صمت نظرات ذات مغزى.

ولكن تريبيت تنحنح فى الصمت وقال بصوت خشن، وإن لم يذهب بعيدا مع ذلك: هذا طلب مرفوض.

قال كاى ـ نن: لماذا؟

فقال تريبيت ناظرا لباط: لأنه.. لأنه..

فأكمل باط: لأنه يتعارض مع عدل آمون الناجز.

وكرر تريبيت: نعم عدل آمون الناجز. هذا تضييع للوقت.

فقال كاى ـ نن: لا تملكون أن ترفضوا هذا الطلب أيها السادة.

مال سمنخ ناحية الكاهنين الآخرين وتقاربت الرءوس الحليقة كشمامات ثلاث متلاصقة وقال سمنخ هامسا أيها المبجلان. هذا مدوَّن فى النهر الثالث من البردية الحادية والخمسين من لائحة محاكمة الكهنة: إذا قدَّم الكاهن، حتى بعد الحكم عليه، التماسا بأن يوزن على ريشة الإلهة ماعت فيجاب إلى طلبه خلال ثلاثة أيام ما لم تنقض عليه صاعقة الآلهة، أيهما أقرب.

همس تريبيت غاضبا: وما العمل إذن؟ هل نترك هذا الملعون يفلت؟

فهمس سمنخ أيضا قائلا فى بطء: إذن فأنت واثق أيها الكاهن المبجَّل أن الميزان سيستقيم؟

قال باط: معاذ آمون.

ـ ٨ ـ

فى الليل كانت المعابد فى (بر آمون) كتلاً داكنة ومظلمة، لا يضيئها القمر. وحدها كانت المسلات المذهبة تلمع نصبا متناثرة

بين المبانى المظلمة كأذرع ضارعة نحو السماء. وكان الكاهن الأكبر يهتدى بها وهو يمشى فى الليل. عبر سمنخ ـ آمون وسط أحواض النرجس وكان ينشر عطره أمام المعبدالضخم الذى بناه آمون ـ حتب والد آخن ـ آتون. وكان الكاهن الأكبر قد أمر بعد زوال الفتنة وإعادة فتح المعابد أن تُزرع الزهور أمام كل معابد الآلهة فصارت (بر آمون) حديقة واسعة عبقة بأريج النرجس والياسمين واللوتس..

وبعد أن اجتاز سمنخ معبد آمون ـ حتب انحرف يمينا نحو الصرح الكبير الذى بناه تحتمس الثالث وهناك رأى الحارس واقفا تحت أحد المشاعل. ولما تعرف الحارس على سمنخ ـ آمون ركع أمامه على ساق واحدة وهو يمسك بحربته، فمد الكاهن الأكبر يده وبارك على رأسه مباركة خاصة..

وداخل غرفة السجن الواقعة فى جدار الصرح كان كاى ـ نن يجلس على الأرض مكبل اليدين والقدمين بحبال مجدولة من ليف النخيل. أعشَى عينيه نور المشعل الذى أضاء زنزانته المظلمة فجأة فأخفى وجهه. وحين استطاع أن يفتح عينيه وجد أمامه سمنخ ـ آمون، يقف وحده فى الزنزانة الضيقة وقد ثبت فى جدارها المشعل.

ظل الكاهن الأكبر واقفا فى الزنزانة الضيقة لا يعرف كيف يبدأ وأخيرا تنحنح وقال بلهجة ودية كيف حالك يا كاى؟

فضحك السجين ضحكة صغيرة، وشعر سمنخ بخطئه على الفور فقال مرتبكا معذرة يا كاى.. كنت أقصد..

لكنه أخيرا حزم أمره فانحنى فوق الكاهن المطروح أرضا وراح بصعوبة يفك الحبال التى تعقد يديه بقدميه واستغرق ذلك وقتا. كانت

العُقد مُحكمة وخشنة، وحين انتهى راح يفرك أصابعه التى خدشتها الحبال خدوشا مؤلمة، وانتصب واقفا وهو يتنهد.

كان كاى ـ نن أيضا يفرك رسغيه وقدميه وهو يتأوه وأخيرا قال شكرا لك يا سمنخ، ولكن الحارس سيعيد عقد الحبال بعد أن تنصرف.

قال الكاهن الأكبر مغمغما بارتباك لست أنا الذى أمر بتقييدك بالحبال ولا بأى شىء آخر. تلك أوامر الوصى على عرش فرعون.

فقال كاى ـ نن كأنما يتذكر ـ الأب الإلهى آى، كان معنا فى مدرسة الكهنة كان متواضعا جدا، يقول لى ولكل إنسان آخر يا أستاذى..

ولكن سمنخ رفض أن يتذكر ذلك ورفض أن يعلق عليه. غير أنه وجد فرصة سانحة فقال على أى حال كل ذلك يتوقف عليك الآن.

فرفع كاى ـ نن بصره إلى الكاهن الأكبر وقال كيف؟

فقال سمنخ ـ آمون أما زلت مصرا على أن توزن على ريشة الإلهة ماعت؟

ولما هز كاى ـ نن رأسه بالإيجاب سأله سمنخ ـ آمون فماذا لو لم يستقم الميزان يا صديقى؟

سكت الكاهن المقرفص على الأرض ثم قال أتذكر يا سمنخ حين كنا معا فى مدرسة الكهنة؟

فقال سمنخ مبتسما نعم، كان الكهنة الشبان يسخرون منى لأنى

أحول ويسخرون منك لأنك تقرأ دائما. ولا تمشى إلا وفى يدك لُفافة بردى مفتوحة.

قال كاى ـ نن نعم وكنت أنت أيضا تقرأ كثيرا ولكنك كنت الأذكى. ما زلت أذكر ذلك الحوار الذى دار بيننا ذات مرة. كنت أسألك ما دام أوسيريس رب البعث القابض على كل الخيرات فى العالم الآخر هو رب العدل ورب ماعت فى الأفق الغربى فما حاجته إلى قرابيننا على الأرض؟ إن كان ما يوزن هو القلب فما أهمية ما تقدمه اليد؟ كيف نتعامل مع أوسيريس العظيم كما لو كان واحدا من موظفى فرعون الصغار نستميله بالهدايا ونسترضيه؟ فقلت لى أنت إن بحثت فى حكمة الأرباب يا كاى حدت عن الطريق. نحن على الأرض لكى نطيع لا لكى نسأل. أتذكر ذلك؟

هز سمنخ رأسه وقال ربما، ومع ذلك فقد كنت أقرأ كل ما كتبت عن آتون. لا تحسب أنى لم أفهمك،كنت أحبك دائما يا كاى وأحب ذلك الشعر الذى تكتبه. ولكنك فيما كتبت عن آتون كنت.. كنت أشبه بالآباء القدامى فى مدينة أون. ما زلت أذكر قولك: كما تميل الزهرة نحو الشمس كذلك يميل القلب نحو آتون فيتفتح بنور الحب، وكما يبدد آتون ظلام الليل كذلك قلبك لن يعرف دياجير الخوف ولا الظلم. زعزعت كل ما كنت أومن به يا كاى، حتى كدت أشك فى آمون نفسه..

ابتسم كاى ـ نن فى مرارة وقال لصديقه فلمَ لم تؤمن؟

كان سمنخ يتحرك منفعلا فى الزنزانة الضيقة التى لم يكن فيها متسع، فراح يدور حول نفسه تقريبا وهو يتكلم. لعله سمع السؤال

الذى وجهه له كاى ـ نن ولعله لم يسمعه لكنه قال وهو لا يزال فى انفعاله:

ـ شىء واحد يا صديقى كاى لم تقله فى كل رسائلك عن آتون. شىء واحد تأكدت منه فيما بعد عندما رأيت كل أولئك الذين كانوا متحمسين لآتون، يتلون فى تمجيده الصلوات ويهتفون لآخن فى كل المواكب كالمجانين، ثم لما وقع آخن هرعوا مرة أخرى إلى آمون ورع وشاركوا فى صب اللعنة على آخن، ذلك الذى كانوا بالأمس يعبدونه مع آتون..

قال كاى ـ نن: هل تتحدث عن النفاق؟ ذلك فى كل عصر.

فهز سمنخ رأسه وقال لا، لم أعن ذلك ولكنى أتحدث عن الخوف. آتون كما كتبت عنه هو العدل كله وهو الخير كله ولكن أين الخوف يا كاى؟.. لماذا ترك الناس آتون الرقيق العذب وعادوا إلى آلهتنا المخوفة، إلى آمون وحورس وأوسيريس؟

قال كاى ـ نن: ألم يكن ذلك لأنكم أجبرتموهم على تلك العودة؟.. أم تظن أنهم يفضلون الخوف؟

فقال سمنخ: لا مرة أخرى يا كاى، أعنى أنهم يحتاجون إلى الخوف، كان آتون حسنا لك ولآخن وللشعراء، ولكن العامة لا تعيش بالتقوى. العامة تحتاج إلى الخوف لكى تعرف التقوى.

قال كاى ـ نن: ومن صنعهم على ذلك المثال يا سمنخ؟

تطلع إليه الكاهن الأكبر متسائلا فقال كاى ـ نن وهو يستند إلى الحائط حتى وقف على رجليه من صنعهم على ذلك المثال؟ من

علمهم خوف تلك الآلهة المتعطشة للدم وللقرابين ولتعذيب البشر تحت الشمس وفى ظلمة القبر؟

فهز سمنخ رأسه وقال فى شك: تعنينا نحن الكهنة؟ أواثق أنت أن الناس ليسوا هم الذين صنعونا؟.. أواثق أننا لم نكن من صنع حاجتهم إلينا؟

قال كاى ـ نن: أنا واثق يا سمنخ أن إلهى الذى ينشر الضياء يضم الناس كلهم إليه بين أشعة النور. أنا واثق أنه لا يريد منهم أن يتقربوا إليه بالدماء ولا بقطع رقاب البشر ولا بتعذيبهم فى الأرض. أنتم أعفيتم آخن ـ آتون من القتل واعتقلتموه فى قصره لأِنه فرعون ولأن كل فرعون يجب أن يظل إلها مهما فعل. ولكنكم تنكِّلون بكهنة آتون علنا. تمزقون أطرافهم وتقتلونهم أمام الشعب وتقدمونهم قرابين لآلهتكم أذلك يا سمنخ هو كل مجد تلك الآلهة؟.. أن ترى الدم والأشلاء والقتل؟.. لماذا أيها الكاهن الذى يعرف؟

فقال الكاهن الأكبر لكى يعود النظام. لكى يطمئن الشعب.

فهز كاى ـ نن رأسه لليمين واليسار وقال: لا يا سمنخ. ولكن لكى يستتب الخوف. وحين يعود ذلك الخوف فيستقر فى النفوس فستجنون أموالا أكثر وتبنون معابد أكثر وتسخِّرون بشرا أكثر. ما أهمية أن يظلوا فقراء؟.. ما أهمية أن يقضوا عمرهم من المولد حتى الممات فى جحور من طين لا تعرف الضياء ولا تعرف البهجة ما دمتم تبنون لهم فى كل ركن معبدا على مدخله إله بوجه تمساح وجسم قرد أو برأس ثعبان وأطراف أسد؟.. ما دمتم تقولون لهم فى كل خطوة خافوا. خافوا فى الأرض وخافوا فى القبر وخافوا فى

البعث. لا ترفعوا رءوسكم ولا تسألوا.. وها نحن، من أجلكم، ننسج في قصورنا عباءة تضمكم بالرعب من البحر حتى بلاد النوبة.. لكننا أيضا، من أجلكم، نصنع في تلك العباءة ثقوبا، نحن وحدنا نعرفها، من أخذنا بيده نفذ منها ونجا..

ثم قال وهو يستند إلى الجدار ولكن سيأتي يوم يا صديقي سمنخ يعبد فيه الناس الإله النور. الإله الذي يقول لهم أحبوا.. ارحموا .. افرحوا.. للفرح خلقتكم فاعبدوني في الفرحة.

تنهَّد سمنخ وقال: ما أجمل ذلك يا كاي لو أنه صحيح! ما أجمل حلمك لو أنه صحيح!

قال كاي ـ نن: لم يكن حلما مع آتون. وغدا سيكون وحده هو الحقيقة.

فقال سمنخ: أخشى أنك ستنتظر طويلا.

قال كاي ـ نن: بل سأعرف ذلك توًّا يا سمنخ وستعرف أنت أيضا. ألم تفهم حتى الآن لم طلبت ريشة ماعت؟

فقال سمنخ بصوت يكاد يكون حزينا: يحسن أن تنسى ذلك يا صديقي. ستكون هناك ريشة وسيكون هناك ميزان ولكنها لن تكون هي ريشة ماعت ولا هو ميزانها.

لزم كاي ـ نن الصمت فترة ثم قال: لم تفعل بي ذلك يا سمنخ؟

فانفجر الكاهن الأكبر قائلا: من تظنني؟ لست أنا الذي آمر. قلت لك تلك إرادة الوصي على العرش. لن يسمحوا لك أن تكون بريئا حتى ولو نزلت ماعت نفسها وبرأتك. ألم تفهم؟

فقال كاى ـ نن بهدوء: إذن لم يبق إلا الإعدام.

قال سمنخ بشىء من التردد: أو حل آخر يا صديقى، أنت تعرفه تماما: تعلن التوبة وتعود كاهنا لآمون. ومن يدرى؟ ربما أنت الذى ستخلفنى، فالوصى على العرش يعرف قدرك.

فقال كاى ـ نن: بل الإعدام.

تنهد سمنخ وقال فى أسف: ذلك ما توقعت.

ساد الصمت، ولكن الكاهن الأكبر ظل واقفا، وانزلق كاى وهو يستند إلى حائط زنزانته، حتى جلس وقال بصوت خافت: شكرا لمجيئك يا سمنخ. أنا أقدر صنيعك.

لكن الكاهن الأكبر قال فى غضب تقريبا: انهض.

قال كاى ـ نن: لا أستطيع. أنا متعب جدا.

لكن سمنخ استمر يقول غاضبا: انهض، ثم انحنى وأمسك الكاهن الجالس على الأرض وجذبه تقريبا وقال له انهض واخرج.

قال كاى ـ نن وهو يستجيب للقبضة القوية: كيف؟

فقال سمنخ بسرعة وهو يكاد يلهث: أنت تعرف الطريق من هنا. تعرف هذه المعابد جيدا. حين تخرج من هنا ستتجه إلى معبد تحتمس الثالث ثم إلى معبد حتشبسوت ثم إلى الصرح الكبير ثم تعبره إلى الباب الخلفى.

قال كاى ـ نن بدهشة: والحراس؟

وهنا ترك الكاهن الأكبر كاى ـ نن وضحك للمرة الأولى منذ دخل

وقال: أنسيت من أكون يا كاى؟.. منذ قليل قلت إننى كنت فى مدرسة الكهنة أذكى منك. أشكرك ولكننى لا أظن ذلك. أنا لا أستطيع أن أكتب ربع رسالة من رسائلك ولا قصيدة من شعرك..

ثم أكمل بلهجة تكاد تكون طفولية: ومع ذلك فقد كنت يا كاى أقوى منك ومن كل تلاميذ المدرسة فى إحدى المواد، ألا تذكر ما هى؟

هتف كاى ـ نن فجأة: السحر!

فقال سمنخ بجد مبالغ فيه: بل قوة الآلهة.

ثم فتح باب الزنزانة. وفى الخارج ظهر الحارس ممددا على الأرض على جنبه. كان يغط فى النوم وهو يحتضن بين ذراعيه حربته. ولم يكن الكاهن الأكبر يحتاج مع ذلك إلا للقليل من قوة الآلهة لكى يصل إلى تلك النتيجة.

لكن كاى ـ نن عاد إلى داخل الزنزانة مرة أخرى وأغلق بابها.

قال سمنخ بدهشة: ماذا تفعل؟

فقال كاى ـ نن: أشكرك مرة أخرى يا صديقى. ولكنى لا أريد أن أعرِّضك أو ذلك الحارس للخطر؟.. كيف ستبرر هروبى؟

قال سمنخ بلهجته الجادة ولكنك لم تهرب. أنت انقضت عليك صاعقة آمون فاختفيت. تلك كما تعلم هى أقصى عقوبة تحل ببشر. ثم مد يده وفتح باب الزنزانة.

تردد كاى ـ نن قليلا ثم قال: ولكن لماذا تفعل ذلك من أجلى؟

فقال الكاهن الأكبر مقطبا جبينه: أنا لا أفعل. آمون هو الذى يفعل. هو يأمرنى وأنا أنفذ.

ظل كاى ـ نن واقفا يتلفت حوله فى الزنزانة فقال سمنخ بهدوء: اخرج يا كاى أنا أعرف الآن ما يدور فى رأسك. أنت تريد أن تبقى وأن تضحى بحياتك من أجل آتون..

فقال كاى ـ نن: من أجل الحقيقة. ما أهمية الحياة فى الكذب؟

قال سمنخ: ما أسهل أن تموت من أجل حقيقتك. ولكن هل تعرف كيف تضحى من أجلها يا كاى ـ نن؟.. اكتب شعرا.

قال كاى ـ نن وهو يبتسم فى حزن: قليل من سيقرأه يا سمنخ.

فقال سمنخ: نعم. هذا صحيح. ولكن من يدرى، ربما هؤلاء القليلون يا كاى هم الذين سيحققون حلمك.

كرر كاى ـ نن بصوت خافت: من يدرى؟

ظل صامتا لفترة ثم مد يده وأمسك بذراع صديقه قائلا: إذن فوداعا لك يا سمنخ. ووداعا لآمون الذى تحول معك مرة إلى آتون.

ظل الكاهن الأكبر واقفا خارج الباب يتابع كاى ـ نن ببصره إلى أن اختفى. ثم عاد وأخذ الشعلة من داخل الزنزانة وأعادها إلى مكانها فى السور فوق الحارس النائم.

مشى مرة أخرى وسط كتل المعابد المظلمة والسكون. مال على حوض زهور واقتطف زهرة نرجس قربها من أنفه. وعندما اقترب من

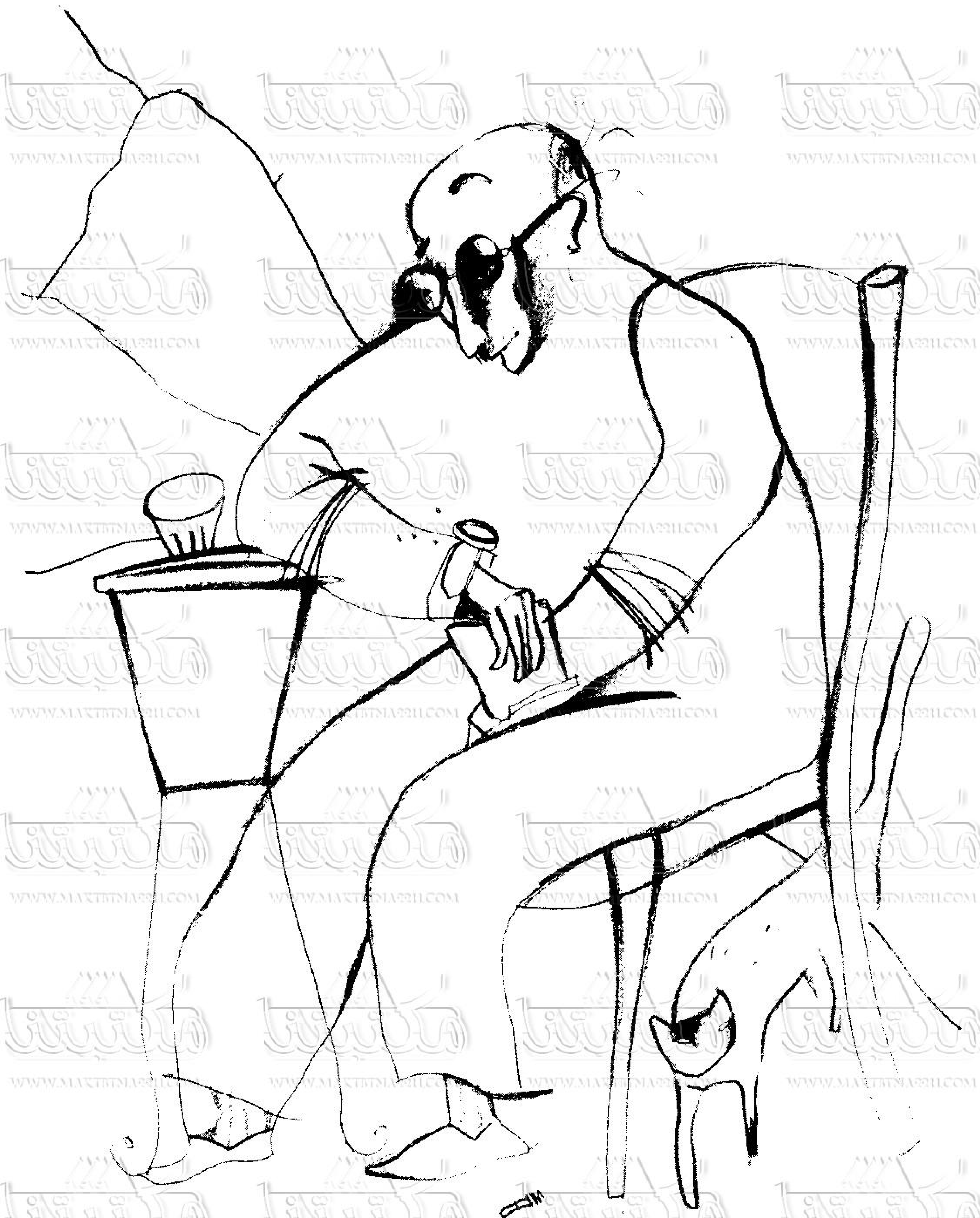
البحيرة المقدسة رأى الأوز الأبيض يهجع متجاورا محيطا شاطئها المظلم بدائرة بيضاء ورأى القمر ينثر نقطا فضّية فوق البحيرة السوداء الساكنة. كان يمر الآن أمام معبد تحتمس الثالث وكان أمامه تمثال هائل لآمون يعلو رأسه تاجه الطويل بريشته المزدوجة فوقف طويلا يتأمل الوجه الحجرى فى نور القمر وأخيرا تمتم:

ـ أى آمون، لم جعلتنى كاهنا أكبر؟

ثم شب على قدميه قليلا ووضع زهرة النرجس فوق الركبة الضخمة الباردة قبل أن يدير ظهره ويبتعد.

(١٩٨٥)

# محاورة الجبل



انتميت بالتدريج إلى مجتمع صغير يتكون فى ميدان باب اللوق فى الرابعة عصرا. كنا نلتقى كل يوم خمسة أو ستة وجوه ألفت بعضها بعضا أمام ذلك المحل الصغير لبيع السجائر. وفى البداية كنت آتى أفعالا لا معنى لها: أندفع بخطوات سريعة وأطلب من البائع العجوز علبة سجائر، بعد أن آخذها وأدير ظهرى أرفع يدى فجأة وأتوقف، أو أخبط جبينى بيدى متظاهرا أنى تذكرت شيئا ثم أعود للبائع وأسأله عن الكشف. بعد فترة وقفت عن هذه الأشياء. صرت أذهب فى الموعد وأقف فى هدوء منتظرا دورى فى الاطلاع على النتيجة. أنتظر مثل الباقين أن أجد يوما الأرقام التى أريدها. لكن ذلك لم يحدث لى ولم يحدث لأحد منهم.

وربما كان خجلى الأول. الذى انتهى مع الأيام، يرجع إلى أننى كنت أكثر المنتظمين شبابا وتعليما. كانت هناك أولا السيدة السمينة العجوز. هذه تسبقنى دائما مهما بكَّرت فى الذهاب، وتهتم بالذات بالورقة الزرقاء التى عليها صورة الحمامة. تلبس باستمرار ثوبا أسود فضفاضا وتربط على رقبتها منديلا أسود له عقدة متدلية فوق كتفها اليمنى. ولم أعرف أبدا إن كان ذلك شارة حداد أو وقاية لرقبتها أو غير ذلك. وكانت أحيانا تشيح بوجهها ولا تكلمنى. فى أحيان أخرى

تقول إنها ترى فى وجهى (السماح) فتقبل علىّ متهللة وتُخرج من صدرها منديلا ملفوفا، كان أبيض وصار رماديا، ثم تسحب منه أوراق اليانصيب المطوية وتطلب منى أنا أن أكشف عليها. وكانت أوراقها مثل أوراقنا: حمراء عليها رأس «أثينا» تعلوه خوذة، وخضراء عليها صورة ممرضة فوق رأسها طاقية بيضاء، وأخرى ليس فيها سوى الأرقام العربية فى خانة والإفرنجية فى خانة أخرى تقابلها. وتحتمها فقرات من قانون اليانصيب ولوائحه.

أما الأوراق الزرقاء التى تعلوها صورة الحمامة فكانت تصدرها جمعية خيرية فى الإسكندرية، وهذه هى التى تنتظر السيدة من ورائها شيئا. فبعد أن أكشف على الأوراق جميعها ثم أعيدها لها صامتا تطلب منى باهتمام أن أكشف ثانية على ورقة الحمامة. وكنت أفعل. لم تكن السيدة متلهفة ولا طامعة ولكنها تريد فقط أن تتأكد، فتسألنى هل الفارق كبير بين رقمها وبين «البريمو» وكثيرا ما يكون الفارق بسيطا فيسعدها هذا وتتطلع إلىّ منتصرة: ألم أقل لك؟

أحيانا تحدثنى عن حياتها. أفنت عمرا تعمل فى منزل أحد بكوات زمان الكبار. كان جبارا فى شبابه. يشخط وينطر والبيت ملىء بالخدم. لا يرحم أحدا لو وجد ذرة تراب على مقعد. الآن انتهى. لم يعد فى البيت الواسع غيرها وغيره. عليها أن تنظف سبع غرف وأن تشترى الطعام وأن تطبخ وأن تطعمه بيدها لأنه مشلول، وهى تتمنى له الموت ليس لأنها قليلة الأصل أو لأنها تنسى أن لحم أكتافها من خيره؛ ولكن لكى يرحمه ربنا. فماذا بقى من الإنسان إن كان عليها أن تحمله لكى يقضى حاجته ثم أن تنظف له جسده بعد ذلك؟ هى تدعو الله أن تموت هى نفسها قبل أن يحدث لها هذا.

من بين الآخرين فى جماعتنا أيضا جرسون فى مطعم قريب. يأتى مسرعا دائما بقفطانه الأبيض وحول وسطه الحزام العريض الأخضر ويقول للبائع وهو يلوِّح بالأوراق ويضحك: «خلصنا. أريد كذا ألف جنيه حالا. لا بد أن أرجع بسرعة للزبائن».وبعد أن يخلصه البائع يعطينا الجرسون نصائح. ربح فى بعض الأحيان جنيها أو جنيهين من تلك الجوائز الصغيرة وكان يفرح بها كثيرا. يقول إن الفضل فى ذلك يرجع إلى نصيحة زبونه الهندى الذى علمه أن يشترى كل أوراقه مسلسلة الأرقام وأن يشتريها كل يوم فى نفس الموعد. بهذه الطريقة لا بد أن تصادف دورة نجمه دورة الحظ. وكان يشير علينا أن نترصد مثله للحظ الذى يدور لكى نصطاد نجمه ذات يوم فيتغير كل شىء. ومن يدرى؟ ربما يكون «البريمو» بذلك من نصيب أحدنا غدا.

يؤكد ذلك كل يوم بحماس بينما يضع أوراقه الجديدة فى جيب قفطانه ويمضى مسرعا وهو يضحك مثلما جاء.

بقية المجموعة كانت هادئة لا تلفت النظر. بائع طعمية متجول يحمل على ظهره إناء مجوفا بداخله الطعمية الساخنة ويسرح على مقاهى باب اللوق. وبواب نوبى فى عمارة قريبة، وبائع فاكهة على عربة يد من السوق القريب. وهؤلاء كانوا مثلى: يخسرون ويشترون فى صمت.

اليوم لم أقابل أحدا منهم. لم أذهب فى الموعد.

اليوم ذهبت إلى المقهى متأخرا وحين وصلت قال لى الجرسون: سأل عنك عم عباس.

كنت أنوى النزول فى الموعد مثل كل يوم رغم أن النهار شتوى بارد. عدت من العمل بعد الظهر بقليل وتناولت فى حجرتى الواقعة فوق السطح غداء من قطع من السمك المقلى اشتريتها من السوق. ولكنى بعد الغداء ظللت هامدا أنظر عبر زجاج النافذة.

كانت كتل كبيرة سوداء من السحب تنضم وتفترق وتترك فى السماء فتحات صغيرة زرقاء كمداخل الكهوف، تبرز منها فى بعض الأحيان شمس صفراء صغيرة تنشر نورا أصفر وشاحبا على أسطح البيوت فى حوارى عابدين. كان هناك الغسيل المنشور وأغطية الفراش الداكنة المفرودة فوق الأسوار وفوق أفاريز النوافذ. والقطط التى تتكور فى بقع الشمس، والكلاب التى تدفن رءوسها بين أذرعها الممدودة والأطفال الذين يشمرون جلابيبهم ويركبون على الأسطح خيولا من العصىّ. وانتظرت طويلا أن يصعد جارى الذى يملك (غية) الحمام على السطح المجاور لكى يطلق سربه الملون. كنت أترقب اللحظة التى يحلّق فيها هذا السرب فى الفضاء الرحب حولنا ويجلب أسرابا ملونة أخرى تتكاثر وتنضم وتعلو شاهقة فتصبح سربا واحدا يدور وينشر زينته فى السماء.

ولكن جارى تأخر فى هذا اليوم فقمت وخلعت بذلتى ونمت.

لم أصل إلى المقهى إلا بعد الغروب بكثير.

كان دكان السجائر واليانصيب مغلقا. فتوجهت إلى المقهى الذى يشغل ركنا صغيرا فى مدخل جانبى لإحدى العمارات. وكانت معظم مقاعده مصفوفة فى الممر تتحلق حول مناضد نحاسية مستديرة ذات قوائم نحيلة. وجدت لحسن الحظ منضدة خالية جلست إليها. وكان

يجلس أمامى عبر الممر رجل سمين يلبس جلبابا أبيض، ويستند بمرفقه إلى المنضدة النحاسية وقد ثنى إحدى ساقيه واضعا رجله تحت فخذه وراح يمتص مبسم الشيشة بانهماك متطلعا إلى الأرض. وعندما قال لى الجرسون إن عم عباس سأل عنى وإنه متلهف أن يرانى قلت له أن يناديه فقال إنه يمر على المقاهى القريبة وإنه سيعود بعد قليل.

طلبت كوبا من الشاى، وشعرت أننى لن أستطيع البقاء طويلا فى هذا البرد، كانت البرودة تجثم فى الممر مثل سحابة غير مرئية تلسع ساقى، ولما وصل الشاى وأمسكت الكوب الساخن براحتىّ كلتيهما جاء ذلك الغريب واستأذن أن يجلس بجوارى وظل واقفا.

كان طويلا بيضاوى الوجه، شعره ناعم أشيب، ولكنه عريض الصدر والكتفين. وكان يلبس بذلة رمادية داكنة، قلت له إن المقعد خال وإنه يستطيع أن يتفضل، وساعتها خُيل إلىّ أن الرجل السمين الذى يدخن الشيشة أخرج المبسم من فمه وحركه لليمين ولليسار وهو ينظر إلىّ ولكن حين تطلعت إليه لأتأكد كان المبسم فى فمه وكان يحدق فى الأرض كالعادة. لم أهتم وبدأت أرشف الشاى، ولكنى لحظتها شاهدت عند المدخل عم عباس يحمل صندوق طلاء الأحذية وحين أشرت إليه تقدم منى متهللا غير أنه بعد خطوتين توقف واستدار وانهمك فى حديث مع بائع الفاكهة الذى يقف عند مدخل الممر، ولما رأيتهما يسيران معا ويوشكان على الاختفاء من المدخل ناديت: «يا عم عباس».. ولم يسمعنى.

كان جارى الأشيب عبر المنضدة المستديرة يتطلع مثلى نحو

مدخل الممر وهو يبتسم ثم التفت إلىّ وقال: «الآن سيعود». هززت رأسى وعدت أشرب الشاى، لكن جارى ظل يتطلع إلىّ بنفس الابتسامة على فمه الواسع وقال لى:

ـ هل تعرف عم عباس من زمن؟

ـ يمسح حذائى كل يوم تقريبا.

ـ ألا تعرف حكايته؟

فقلت بلا اهتمام: لا، ولكنى أسمعه أحيانا يقول: «يا خسارتك يا بنت يا هانم» كل المقهى يسمعه يقول ذلك فى بعض الأحيان، أظن كانت عنده بنت اسمها هانم وأنها ماتت.

ضحك جارى ولاحظت أن وجهه يمتلئ بتجاعيد أكثر مما كنت أظن وقال: لا.. لا.. البنت هانم حكايتها حكاية، وعم عباس الطيب هذا (نمرة) كبيرة.

انصرفت بوجهى عنه وعدت أشرب الجرعات الأخيرة من كوب الشاى وأنا أفكر أن أقوم وألحق بعم عباس لأعرف لماذا كان يريدنى. كنت أخشى أن يعاود جولته فى المقاهى وأن يتأخر وكنت أشعر بالبرد ويضايقنى إلحاح الرجل الجالس بجانبى على أن يتكلم ولكنه استمر.. قال: كان هذا فى الزمان البعيد.. كان عم عباس مختلفا وكانت القاهرة مختلفة.. أتعرف أن هذا الميدان الذى نجلس فيه كان اسمه ميدان الأزهار؟ قلت: نعم سمعت ذلك، قال: سمعت، ولكنك فى الغالب لم تره كان هذا الميدان بالفعل بستانا صغيرا من زهور منسَّقة فى أحواض مدوَّرة وسط نجيل أخضر نظيف، وكانت

تحف بالزهور أشجار قصيرة وتتوسطها ساعة ترتفع على حديد مشغول، ويحيط بذلك كله حاجز قصير من حديد مزخرف على شكل مثلثات رقيقة متداخلة كالدانتيلا. وكانت الأشجار فى كل مكان، فى الميدان وفى الشوارع التى تتفرع منه، أشجار عالية على الرصيف تمتد أغصانها الخضراء وتلتقى عبر الرصيفين وتلتف فيصبح كل شارع كرمة مظللة. وفى الصيف تزهر تلك الأشجار زهورا حمراء وبنفسجية كبيرة ثم تنفضها على الأرض فى الخريف فتمشى على بساط ناعم من الزهور. وفى كل يوم تمر عربة تسقى تلك الأشجار، ترويها واحدة واحدة فتراها دائما خضراء، نظيفة، نضرة، لا كأشجار اليوم المريضة التى تختفى تحت التراب فلا تعرف إن مررت بها إن كانت شجرة أم عامود نور، يروون الأشجار فى العصر، وقبل الغروب يمر رجل يحمل سلما على كتفه. يصعد على السلم فينظف فوانيس الشارع من الداخل والخارج حتى يلمع زجاجها ثم يشعل تلك المصابيح التى تضاء بالغاز فيغمر الطريق نور هادئ يتخلل ظلال الأشجار، يحدث هذا كل يوم.

قلت: هنا، فى باب اللوق؟

فقال: نعم، أقصد من زمن.

ثم ضحك وهو يقول: أيام كان هناك الهدهد. هل تعرف الهدهد؟ ذلك الطائر الصغير بالتاج المزخرف فوق رأسه؟ كان أيضا يبنى عشه فى تلك الأشجار يجاوره اليمام بهديله الجميل والحمام الزاجل برقبته اللامعة المتعددة الألوان. وكنت تستيقظ فى الصباح على غناء تلك الطيور، وحين تخرج إلى عملك ترى أسرابها ذاهبة هى

أيضا لتعمل فى الحقول. وفى المساء تراها تعود إلى بيوتها الخضراء المورقة. أما على كورنيش النيل فكانت أشجار الكافور العالية تنشر رائحة معطِّرة. وكان هناك أيضا الفل والياسمين. معظم البيوت تحيط بها أسوار قصيرة من الحديد يعرِّش عليها الزرع الأخضر الذى ينوره الياسمين الأبيض. فى كل مكان تمشى وسط نسيم معطِّر، وعلى النيل كانت كازينوهات كثيرة، أذكر واحدا من تلك الكازينوهات، كان فى مدخله رمل أصفر نظيف تحف به أصص الزهور وأشجار التمر حنة والكافور، وبالليل يضاء ذلك المدخل بعقود من مصابيح ملونة وتعزف الموسيقى فى الداخل ويرقص الناس. وكان هناك أيضا فتوات يحرسون الكازينوهات من الأوباش، فقد كان الزبائن أمراء وكبراء وخواجات وناسا محترمين لكل منهم سيارة لها سائق، وبجوار الرصيف وتحت الأشجار تصطف هذه السيارات البيضاء والحمراء والصفراء، نظيفة، تلمع كأنها مرايا، وبداخلها عقود الفل. عم عباس كان فتوة فى هذا الكازينو وهانم كانت إحدى الأرتيستات.

صحت: عم عباس.. ولكنه نحيل كالفتلة!

قال الرجل الأشيب: هذا الآن.. أنت لم تره أيامها، كان كل الفتوات يرهبونه وكان هو أيضا طويلا عريضا كشجرة كافور.

سكت الرجل الأشيب وسكت أنا أيضا، تطلَّعت إلى الرجل الذى يدخن الشيشة أمامى، نظر فى عينى نظرة طويلة كأنه شارد، ثم عاد يحدِّق فى الأرض.

قلت: سأنصرف..

فقال الرجل الأشيب: وأنا أيضا، طريقنا واحد.

ـ كيف عرفت؟

قال: أعرف.

في الميدان تحت الكوبرى العلوى كان الباعة المتجولون الذين يبيعون الكبريت والأمشاط وغاز الولاعات والعوازل الطبية للرجال والعطور الرخيصة منكمشين من البرد أمام الطبالى الواطئة التى تحمل بضائعهم وتتناثر فى الميدان. كانوا يضعون أياديهم فى جيوب جلابيبهم وقد تلثَّم بعضهم بالكوفيات، وعلى الأرض كان تراب وقصاصات ورق ونور أصفر متوهج ينتشر من مصابيح عالية، وكنت أسير ببطء وأتوقف لحظات أتطلع إلى البضائع التى لا أريدها آملا أن يتركنى الرجل الأشيب أو أن أجد فرصة للانسحاب. لكنه ظل يسير إلى جوارى صامتا.

عند سلم الكوبرى مددت يدى لأصافحه وقلت: هذا طريقى.

قال: ولكنك لم تنتظر عم عباس.

قلت: سأراه غدا. أشعر بالبرد وأريد أن أذهب إلى البيت.

ولكنه مد يده وأمسكنى من ذراعى وهو يبتسم وقال: يا رجل الأفضل أن تدور حول هذه الكبارى لا أن تصعدها. انظر هل ترى واحدا يستعملها؟ هذه فقط لتجميل المدينة، سأريك سكة مختصرة وفى الطريق سنقابل عم عباس. ثم ضحك وهو يقول وربما البنت هانم!

وبينما نسير فى الطريق الذى خف فيه الزحام بسبب البرد، قال: ولكنك لن تعرف أن هذه البنت هانم لو رأيتها الآن. لن تعرف كيف

كانت. هانم هذه التى يتكلم عنها عم عباس كانت.. كيف أقول؟ كانت أجمل شىء فى كل كازينوهات النيل. طويلة خمرية شعرها الأسود ناعم وغزير، يلمع كالنيل فى الليل. كل شىء فيها جميل، عنقها الطويل. صدرها الناعم المرتفع، بطنها المشدود، عيناها السوداوان الواسعتان بأهدابهما الكثيفة، ساقاها الطويلتان البضَّتان، كل شىء.. وفى ذلك الكازينو كانوا يرقصون رقصا إفرنجيا فوق منصة خشبية خلفها النيل... فى الشتاء فقط يضعون سواتر زجاجية، ولكنها كانت أيضا تكشف النيل والأشرعة البيضاء للمراكب التى تسبح فوقه. هانم أيامها كانت تُسمى نانا. هناك بالطبع بنات غيرها،أوربيات ومصريات، نساء جميلات يأتين مع الزبائن وأرتيستات فى المحل. ولكن نانا هى التى ترقص، لا ترى أحدا غيرها فى زحام الراقصين على المنصة. وهى وحدها التى تبقى هناك طول الوقت، تبدأ مع الفرقة حين تبدأ العزف ولا تنزل حتى تنتهى الموسيقى.. يتناوب عليها الخواجات والأمراء، وهى هناك ترقص معهم وكأنها لا تشعر بهم. جاء ناس يتحدونها، رجال أقسموا أن يتعبوها وراقصات وعدن أن يبقين معها وأطول منها. لا فائدة، بعد ساعة، بعد ساعتين، كان هؤلاء المنافسون ينسحبون وتظل هى: تطأ الأرض بخفة، تدق الأرض بعنف.. ترقص بقدميها مع الأرض، وترفع رأسها فوق عنقها العالى للسماء، فوق كل رءوس الراقصين، فلا تكاد تراها، ترى فقط فستانها القصير يتطاير حول ساقيها الملساوين، يلتف حولهما،يدور ويدور، وكل الأعين تدور معها. كان بعض الخواجات يأتون كل ليلة لمجرد أن يشاهدوها. عرض بعضهم عليها أن تسافر إلى أوربا. قالوا لم نرَ واحدة ترقص هكذا. لو سافرت تكسبين ذهبا. لكنها بقيت. بعد

الرقص كانت هى التى تختار من يفتح لها وتطلب الثمن الذى تريده للشمبانيا. قيل إن تجارا كبارا أفلسوا بسببها، قيل هذا، ولا أعرف إن كان صحيحا أم لا، ولكنها عندما تجلس مع من تختاره فقد كان الكل يحسده. كان يشعر ويشعر الجميع أنها تمنحه لا أنها تأخذ منه.

غير أن هذا كله يا صاحبى ليس مهمًا، المهم حقا كان هو أن ترى هانم أو نانا بعد ذلك. بعد أن تشرب ثم ترقص الرقص البلدى. لم تكن معها فرقة إنما طبال واحد وعوّاد واحد. يبدأ هذا بعد نصف الليل بكثير. بعد أن تنصرف الفرقة الإفرنجية ويجلس الجميع يشربون ويضحكون، ثم بعد حين تخف الضحكات وتتلاشى ويحل الصمت. صمت طويل. ربما نقرة طبلة أو نقرتان. ضربة وتر على العود، همس الموج أو خريره السريع أيام الفيضان.نداء. أتظن أنها كانت تغير ثيابها؟ تلبس بذلة الرقص مثلا؟ أبدا. تجلس هناك، دائما، بفستان واسع وبلا أكمام، وغالبا ما يكون لونه أصفر، تشرب، ساكتة هى أيضا، والصمت فى الليل مثل خيمة على الكازينو، ورءوس السكارى مطرقة وحزينة. ودون أن يشعر أحد، فى لحظة لا يعرفها سواهما، يسرع النقر على الطبلة ويسرع خفق الأوتار على العود.

وترى هانم فى مكانها، تترك كأسها، تدق الأرض بقدمها، يهتز جسدها، تحرك رأسها لليمين ولليسار، ترتج كأنها تقاوم، كأنها ترفض نداء خفيا، ولكن ذلك النداء لا يقهر، تراها تمد ذراعيها معا وهى تجلس فى مكانها. تخلع بيديها أوتاد الخيمة الحزينة المظلمة التى حلّت على الكازينو فتطير بعيدا، وتقوم هى، تتجه إلى تلك المنصة الخالية إلا من الطّبال والعواد، ولكنك تكاد تسمع

أنفاس الناس مثل تنهيدة عميقة حين تبدأ بطيئة وناعمة.. تفرد ذراعيها شعاعي نور حول جسدها ومن خلفها الليل والنيل.. تحرك ذراعيها الرشيقتين. غصنين ليِّنين يتحاوران مع النسيم الليلي، ترقص أصابعها..تعزف تلك الأصابع أوتارا لا ترى فتنساب منها شبكة من نغم تحيط بالمشاهدين.. بطيئة وناعمة.. جسدها يتموج.. أقدامها تمس الأرض مسًا وهي تنساب فوق المنصة.. منديل من حرير رقيق سيحمله النسيم معه إلى هناك، حيث النجوم.. ساعتها لا تكاد تسمع الطبلة، وإنما وتر رفيع متقطع يتموج هو أيضا مع جسدها، ثم تبدأ الطبلة.. خافتة أيضا.. متقطعة أيضا.. وحركة جديدة تدب في الساقين الطويلتين.. في الذراعين المرفوعتين إلى أعلى.. في الصدر المتوفز.. في الأرداف الريانة المرنة..موجة بحر قادمة من بعيد تغلي بالزَّبد، مُهرة بيضاء تشب على ساقيها تمزق اللجام، ثم فجأة تنطلق تلك العاصفة.. تركض المهرة حرة.. تضرب الموجة العاتية الشط وتتناثر في السماء.. ترقص هانم.. ترقص الدنيا.. النيل تحتها ونجوم السماء فوقها ونقر الطبلة والأشجار والنسيم ورءوس المشاهدين وأقدامهم وقلوبهم.. فرحة ترقص في الكون، وهي هناك تدور وترقص.. تنثني للخلف فترقص الذراعان جناحيّ طائر أبيض يخفقان وسط ريح جامحة تارة ويسبحان وسط أنسام حانية تارة أخرى والطبلة تجاهد لتلاحق ذلك النغم المتقلب.. تسجد في الأرض.. يتبعثر شعرها الأسود الناعم حول رأسها.. ترقص الجدائل أمواجا ليلية صاخبة.. ترفع المهرة غرتها السوداء.. تجمح وتشب وتتابع ساقاها الخمريتان الرقص.. يصعد النغم مرة أخرى من الأرض إلى السماء.. لا شيء يروض هذه المهرة وهي تركض وتتمايل وتنثني

وتشب وسط صيحة كالآهة تندلع من قلب المشاهدين وتعبر النيل والخلاء وتظل معلقة فى الفضاء. ثم مرة أخرى، تطأ الأرض بخفة. فيصبح كل شىء من جديد هادئا.. شفافا.. غلالة ناعمة تترجرج فوق الرءوس.. ويعود الوتر خفيضا ورخيما هذه المرة، قبل أن يبدأ كل شىء من أوله مرة، ومرتين، ومائة مرة، وكم يستمر ذلك؟ ساعة؟ ساعتين؟ صدق هذا إن شئت ولكن فى بعض الأحيان كان الشفق يصبغ الأفق والنيل بلونه الأحمر وتلك الدوامة لا تزال.. هانم.. نانا.. آه من تلك الأيام.

كان الرجل الأشيب يلهث حين قال ذلك.

توقف عن الكلام فسألته: وأنت؟ أنت مازلت تذكر ذلك كله حتى الآن؟ لا بد أنك كنت تذهب كثيرا.

سكت طويلا.. ثم استنشق الهواء بعمق وقال بصوت حاول أن يجعله هادئا: نعم بالطبع.. أنا كنت هناك كل ليلة.. كنت أحب هانم وكانت هى تحب عباس.

وأذكر أننا كنا نسير وكان هو يتكلم.. لا أستطيع أن أقاطعه، ولا أستطيع أن أتركه.. وأذكر أننا خلفنا وراءنا عابدين وأننا كنا نسير فى شارع الأزهر، تملأ أنفى رائحة البخور الخام تنفذ من محلاته المغلقة وأنه كان يتكلم.. ثم انتهت الرائحة المعطرة وكفَّ عن الكلام.. ورحنا نمشى فى تلك الحوارى المظلمة المتعرجة وهناك صبية يسيرون خلفنا ويسبقوننا فى تلك الأزقة المتقاطعة وهم يصيحون ويسبون بعضهم بعضا.. ولم أفهم ما الذى يبقيهم فى الطريق فى هذا البرد ولا ما الذى أتى بنا إلى ذلك المكان.

وسألت الرجل الأشيب: أين نذهب؟

قال بصوت خشن: ألا تتعاطى الأنفاس؟

قلت: نادرا، فى بعض الأحيان.

فقال: ليكن الآن بعض الأحيان.

وأذكر تلك الظلمة الليلية فى الأزقَّة تنفتح فجأة على ساحة متسعة بعض الشىء ومضاءة تماما.. يقف فيها طابور قصير من رجال يلبسون الجلابيب والبدل أمام مدخل بيت تسده منضدة عريضة وفوقها ميزان صغير وقد وقف خلفها رجل يلف رأسه بشال كبير أبيض من الحرير ينزل على صدغه ورقبته ويتدلى على كتفه ويزن تلك الأشياء.. وفى ركن آخر من الساحة كانت تجلس عجوز تلبس السواد أمامها قفص من جريد رصَّت عليه أصابع العسلية وثمار الدّوم بجانب باكوات اللبان والشيكولاتة المستوردة وحولها بعض الصبية وذباب ليلى يحوم فوق القفص.

تقدم الرجل الأشيب ووقف فى نهاية الطابور.

وأذكر أيضا بعد ذلك أننا كنا نجلس على الجبل الذى يتكون من صخور قليلة وتراب ناعم كثير.. فبعد أن اشترى واصلنا السير فى تلك الحوارى المتعرجة الضيقة إلى أن أصبحنا فى الخلاء وأمامنا ظهر الجبل يرتفع فى الظلام كحائط أسود، ولكن كان هناك ممر يخترق ذلك المرتفع الذى بدا لى كتلة واحدة صماء، سبقنى هو عليه بخطوات مدرَّبة إلى أن وصلنا إلى قمة تكاد تكون تجويفا وسط الصخور.

وعندما توقفنا وكنت ألهث سألته: أين سنذهب؟ قال: هنا.

قلت: هنا، فى هذا الخلاء؟ ظننتك تعرف (غرزة) جيدة فى الجبل.

قال: بعد قليل ستكتشف أن هذه أفضل (غرزة).

تطلعت حولى.. كانت بجوارنا حديقة ماتت أشجارها من زمن.. بقى بعض من تلك الأشجار منتصبا وعاريا. ومال بعضها متعامدا على البعض الآخر وسقط معظمها على الأرض. وعلى يميننا كانت القلعة تضيئها كشافات صفراء، وتحتنا شارع صلاح سالم تومض فيه أنوار السيارات المسرعة قبل أن تختفى.. وعبر الشارع كان ينتصب جبل المقطم تحته شواهد المقابر الفقيرة وقباب المقابر الغنية.. وهناك فى أعلى المقطم مئذنة رفيعة داكنة كرمح مرشوق فى الأرض.

قلت للرجل الأشيب وأنا أضع يدى تحت إبطى وأنكمش: لا أظن أنى أستطيع.. أشعر بالبرد.

وكان وقتها يجلس منهمكا فى تفريغ دخان السجائر على ورقة مطوية أخرجها من جيبه واحتضنها بين ذراعه وجسمه لكى لا يتطاير التبغ. فقال لى: ألا تخجل وأنت شاب بهذا الطول والعرض؟

قلت ومع ذلك أشعر بالبرد فلنعد أرجوك. كنت أريد أن أسمع منك بقية حكاية هانم ولكنى تنازلت عن ذلك. ليس فى هذا البرد.

طوى الورقة جيدا من كل أطرافها ووضعها فى جيبه ثم قام وهو

يتنهد واتجه إلى الشجرة القريبة الممتدة على الأرض وسمعت صوت تقصُّف الأغصان الميتة.

بعد ذلك كنا نجلس وبيننا تلك النار الصغيرة التى أشعلها ندفئ عليها أيدينا الباردة ونتبادل السيجارة الثمينة فى حرص لكى لا يسقط منها الرماد.

قلت له: لم تقل لى ما اسمك؟

فقال وهو يضحك ما تشاء: حسن، حسنين، أمين، حنا، حنين، كلها أسماء.. سمّنى ما شئت.

ـ سأسمِّيك حبيب هانم.

ـ لا بأس.. هذا أيضا يصلح.. لكن أحباء هانم كانوا كثيرين فلا بد أيضا أن تعطينى رقما.. رقم ٣٧ أو ١٦٧ كما تشاء.. وأخذ يضحك.

ثم قال: ولكنك يجب أن تحتفظ بالرقم واحد لأخلص أحبائها.. لن تصدق من كان هذا. كان طويلا وسمينا وغليظ الرقبة، ضخم الصوت، يأتى من أول الليل لكى يشاهدها وهى ترقص الرقص الإفرنجى لكنه لا يرقص معها. كان صعبا أن يحرك جسمه البدين فكيف يرقص؟ ولكن تخرج منه بين الحين والآخر بصوت عميق عبارة واحدة: «الله يا ست». يحجز كل ليلة مائدة. أول مائدة تحت المنصة مباشرة. وعندما ترقص تراه يشرئب بعنقه، يرفع رأسه الضخم، يحِدِّق إليها مأخوذا. ولو وضعت سكينا على رقبته ساعتها فلن يشعر بك.

قلت: ولكن ما الغريب فى ذلك؟ ألم تقل إنها كانت تسحر الجميع بما فيهم أنت؟

قال: الغريب يا سيدى إن مدحت، وهذا اسمه، مدحت الذى كان مفتونا بها إلى هذا الحد كان.. كان يقال إنه عاطل عن النساء. نعم، لم يتزوج ولم نسمع أنه عشق. إلا عشقه الغريب لهانم بطبيعة الحال التى ظل وفيا لها حتى النهاية. وكانت هانم تؤثره أيضا. تربت على كتفه إذ تمر به، تقف بجانبه تقول له كلمة أو كلمتين، تشرب معه فى ليال كثيرة فتراه ساعتها جاحظ العينين، مرتجفا، يرتعش جسمه وترتعش يداه. حتى عباس لم يحب هانم كل هذا الحب.

قلت: ولكنك لم تكمل الحكاية.. ما الذى جرى لهانم؟ ما الذى جرى لك ولعباس؟

ـ كلنا بخير ونهديك السلام.

ـ أرجوك. أريد أن أعرف.

ـ ماذا تريد أن تعرف؟ لكن سأقول لك، حدثت أشياء. نانا أدمنت شم الكوكايين وعادت هانم. هذا الشىء حدث لكثير غيرها فى تلك الأيام. كانت تقف هناك على المنصة تدق الطبلة ويعزف العود وهى تمد يدها صامتة كأنها تستنجد. تحرك ساقيها لترقص فتبدو وكأنها تتعلم المشى. بعد قليل طردوها من الكازينو. وعباس طعن هانم بالسكين وكاد يقتلها فدخل السجن، هذا ما جرى.

ـ هذا كل شىء؟

ـ نعم هذا كل شىء.

ـ كيف. وأنت ماذا حدث عندما.....

فقال وكأنه يصرخ: اسكت.

فسكت..

كانت النار قد خبت. ورأيت الجمرات الحمراء الكبيرة تطلق فى الظلمة شرارات لها دوى الرصاص، فتراجعت للخلف.

تراجع هو أيضا. تراجع بجذعه واستند بمرفقه على الأرض وهو يقول: هانم هانم من تكون هانم يعنى؟ هانم الحقيقية كنت تراها بعد ذلك فى النهار، بعد أن تخرج من الكازينو فى الفجر وهى تتأبط ذراع عباس. وكانت تبدو بقامتها الفارعة ضئيلة وهى تمشى بجانبه فى الطريق. يتأخر الكبراء والباشوات فى صف السيارات اللامعة، يتلكأون أمام الكازينو لمجرد أن يلقوا النظرة عليها وهى تنصرف. كل منهم مستعد أن يدفع ما تشاء لتصاحبه ولكنها تمشى مع عباس. تمشى إلى أين؟ غرفة فى حى (بين السرايات). أيامها كانت تلك المنطقة المجاورة للجامعة كلها حقولا تتناثر وسطها بيوت فقيرة كالعشش. وبعد ساعة أو ساعتين من خروج هانم وحولها تلك الهالة من الإعجاب والسحر تراها هناك، تلبس جلبابا طويلا وتُعصِّب رأسها بمنديل كبنات البلد، وتقف وسط بقية النساء فى الحى ومعها طبق تشترى فولاً من العربة التى تحمل قدرة المدمس، أو تراها بعد ذلك تقرفص أمام باب غرفتها الصغيرة المفتوح تعد الخضار وتشعل وابور الغاز لكى تطبخ لرجلها، لعباس. وإذ تمسح وجهها فربما ترى خطوطا من الهباب فى ذلك الوجه الذى ينير كبدر فى الليل. قد تمر بها ساعتان فلا تراها. لا تتوقف عندها لحظة واحدة. مجرد

واحدة من النسوة الفقيرات فى ذلك الحى الفقير. هذه هى هانم الحقيقية. حشرة. صفر كبقية الأصفار حلّت بها نعمة لا تستحقها ومرت كالسحاب. قل لى من تكون هانم؟ غدا تموت فلا يسمع بها أحد. لا يمشى فى جنازتها أحد.. يدفنونها فى مقابر الصدقة.. هناك تحت مع أمثالها..

قلت: ولكن. لماذا إذن أحببتها؟

قال: أردتها. هذا كل شىء. ظننت هذه النعمة العابرة رفعتها فوق الأصفار ولكن.. ثم اعتدل فى جلسته وقال:

ـ ولكن أنت لن تفهم. أنا قلت لك إننى أحببتها لكى أقرِّب لك الفهم. ولكن ما أعرفه أنا ليس هو الحب الذى يعنيه الأوباش. هو شىء من نوع آخر موضوعه امرأة. امرأة أعلم أننى ذات يوم.. ولكن لا يهم فأنت لن تفهم. نعم كنت هناك كل ليلة. أجلس وأراقبها أرى الأذرع تتناوب الالتفاف حول خصرها.. أرى صدرها الناهد يلتصق بصدور أخرى.. أراقبها حين تجلس.. حين تلتفت برأسها فتظهر عضلة رفيعة من خلف أذنها تمتد وتصنع تجويفا صغيرا عند التقاء رقبتها بكتفها أتمنى أن أملأه بشفتىّ.. أراقبها حين تتحسس بأناملها كأسها فأتخيل هذا الملمس الناعم الطرى.. أتابع امتلاء جديدا فى شفتيها الورديتين المكتنزتين حين تشرب..ارتخاء أهدابها الكثيفة وزمَّة شفتيها حين تفكر. نعم. لم يكن يفوتنى منها شىء. كل ليلة أجلس هناك وأراقبها، فهل كان عباس يعرفها مثلى؟ هل كان يرى منها ما أراه؟ هل كان يستحقها؟

ـ كانت تحبه وكان يحبها. هذا يكفى.

ـ يكفيك أنت لا أنا.

ـ وكنت تعذب نفسك كل ليلة بهذا الشكل تنتظر مثل الآخرين إلى أن تراها تمضى مع عباس؟ لماذا؟ لماذا ما دمت تعرف أنها ليست لك؟

قال: ماذا تقصد؟ لماذا أذهب؟ ألم أقل لك ألف مرة؟ كان الكازينو ملكى. كنت أملكه. وكانت كل البنات فى الكازينو ملكى، ولكنى عندما طلبتها هى قالت: يا خواجة هل تقبل الشرك مع عباس؟ قلت أقبل. كل ما ترضين به. قالت: أنا لا أقبل الشرك. عباس لا يقبل الشرك.

قلت: وهل أنت خواجة؟

ـ بالطبع لا ولكن هذه حكاية أخرى.. رفضتنى هانم ولكن انتقامى كان يليق بها.

قلت: إذن فأنت الذى علَّمتها الكوكايين؟

ـ أى كوكايين؟

ـ ألم تقل الآن حالا إنها أدمنت شم الكوكايين ولم تعد تستطيع الرقص فطردوها من الكازينو؟ أقصد طردتها أنت من الكازينو..

ـ وصدَّقت ذلك؟ أنت كنت تريد حكاية مسلية فحكيت لك حكاية مسلية. حكاية العالمة التى تشحذ فى الطرقات وتشم الكوكايين. لا يا عزيزى. انتقامى كان أبسط من ذلك وأجمل بكثير.

قال ذلك وقام ثم أخذ يتمطى وقال: ذكرتنى بأشياء كدت أنساها ولكننا نحتاج مزيدا من النار.

مشى باتجاه الحديقة الميتة. وكانت الكشافات تضىء القلعة فبدت قبتها فى الظلام كتلة واحدة داكنة كصدر امرأة ناهض نحو السماء التى كانت توشيها نجوم كثيرة من نار بعيدة تتكئ حولها كائنات سماوية مجنّحة وتثرثر مثلما أثرثر مع الرجل الأشيب. غير أنها لا تعرف الانتقام ولا تعرف الحزن، ومن حولها فى ذلك البحر السماوى المظلم كانت تسبح سحب صغيرة.. زوارق بيضاء شفافة ومتتابعة..

عندما عاد أخذ يكسر الأغصان قطعا وسط الجمرات ثم انحنى وأخذ ينفخ فيها إلى أن اشتعلت أطرافها وأخذت تحدث تكتكة خافتة. وكنت أجلس منكمشا وأتأمل وجهه الذى تضيئه النار. كان شعر ذقنه النابت أبيض كله أما شعره الفضى الناعم المرجَّل إلى الخلف فقد بقيت فيه بعض خطوط سوداء. وتخيلت أنه كان وسيمًا فى شبابه، فقد كانت عيناه اللتان تحيط بهما التجاعيد عسليتين واسعتين تلمعان كعينىّ قط. ولما بدأ سحب سيجارة جديدة قال لى بصوت هادئ: تركتنى أتكلم كثيرا فلماذا لا تتكلم أنت؟

ـ عن أى شىء تريدنى أن أتكلم؟

ـ كما تشاء عن الحب مثلا. ألم تحب أنت؟

ـ كثيرا وفشلت كثيرا. أنت ملكت نساء الكازينو كما قلت وأنا ملكتنى كثيرات غير أنى لم أمتلك واحدة. كلهن كن هانم معى. بعيدات مهما حاولت أن أقترب.

قال وهو يمد لى السيجارة ويضحك: احك لى عن واحدة منهن. ربما استطعت أن أعطيك نصيحة.

رددت يده وأنا أقول: لا شكرا.. لا أريد أن أدخن. يكفينى ما أخذت، ربما فيما بعد.

لم يُلح وسحب نفسًا عميقا ثم قال: تخاف أن تغيب عن نفسك؟ لا يهم. احك لى..

ـ ولكننى قلت لك إنها كانت قصصا فاشلة. كلها متشابهة وإن كانت لى أنا أيضا منذ زمن قصة لا أظن أن أحدا يشاركنى فيها.نعم. هذه الظلمة تذكرنى بها.وهذا المكان يذكرنى.كنت وقتها فى الخامسة من عمرى أو أكبر أو أصغر قليلا.

ـ فى الخامسة من عمرك؟ لا بد أنك كنت تحب مربيتك.

ـ فى قريتنا لم تكن هناك مربيات. أمى هى التى كانت تربينى، وكنت أحبها، ولكنى كنت أيضا أحب أختى محاسن التى تكبرنى بخمس سنوات. ربما كنت أتعلق بها أكثر من أمى فقد كانت هى أيضا تحبنى كثيرا. تسحبنى من يدى إلى كل مكان تذهب إليه. تأخذنى حين تحمل الطعام إلى أبى فى الظهر فى حقله، وفى الطريق تتحين فرصة لكى تنزل إلى أحد الحقول وتجمع لى الفول الأخضر الذى أحبه بينما أقف أنا فى الخارج لأنبهها وأحذرها إن ظهر أحد، أو تأخذنى معها عندما يرسلونها إلى الدكان لتشترى شيئا فتأخذ من البيت بيضتين أو ثلاثًا لتشترى لى أصابع العسلية. وعندما ترسلها أمى إلى الطاحونة.. التى كانت بعيدة فى آخر القرية لكى تطحن شيئا من الغلَّة كانت تغنى لى فى الطريق أغنيات قريتنا وتحملنى إن

تعبت من المشى رغم أنها هى أيضا نحيلة وصغيرة.وكنت أضحك عندما أرى الدقيق فى الطاحونة يغمر وجهها وشعرها الذهبى ويتعلق برموش عينيها الخضراوين فتبدو كبهلوان الحاوى الذى كان يمر بنا بين الحين والآخر. ولكن هذا المنظر يسعد أمى التى كانت تريد دائما أن تخفى جمال محاسن لأنها تخاف عليها من العين. كانت تضفِّر شعرها الأصفر الجميل وتعصِّب رأسها بمنديل وتخفى ضفيرتها من فتحة رقبتها فى داخل ثوبها. تختار لها حين تخرج جلبابا قديما وممزقا ولا تغسل لها وجهها حتى لا يبين صفاء بشرتها. ولكن هذا كله لم يفلح فى إخفاء جمالها الذى كانت كل قريتنا تعرفه وتتكلم عنه. فعندما كانت إحدى جاراتنا تحمل لم يكونوا يدعون لها بولد كما هى العادة عندنا بل أن يرزقها الله بنتا فى جمال محاسن. ولم يفلح حذر أمى فى خداع الموت أيضا. فعندما كانت محاسن فى العاشرة زارها الموت فى حُمَّى قصيرة وأخذها معه. وفى ذلك اليوم، بعد أن دفنوها، كانت أمى جالسة تبكى،والنسوة من حولها يبكين ويعددن بتلك الأغانى الحزينة وكنت أنا منزويا فى ركن بعيد. لم أكن أبكى ولكنى كنت أنتظر. أنتظر أن ينتهى النهار. تذكَّرت أن محاسن كانت عندما نمر ناحية المقابر فى الغروب تعدو خائفة وهى تجرنى وراءها. تقول لى إن الموتى يخرجون من قبورهم بعد مغرب الشمس ويتزاورون. يعقدون جلسات ويحكون حكايات مثلما نفعل نحن الأحياء. وليلتها ذهبت. أردت أن أرى محاسن حين تخرج وأن أقول لها إنى لا أريدها أن تموت وأريدها أن ترجع معى. كنت متأكدا أننى حين أبكى وأتعلق بثوبها فلن تستطيع أن ترفض طلبى. هكذا كنت أفعل معها دائما عندما أريد شيئا فلا ترد لى طلبا. وقبل أن يحين

الغروب تسللت خارجا من البيت اجتزت بيوت القرية ثم رحت أعدو إلى هناك، إلى تلك الربوة الصغيرة التى ترتاح فوقها قبور قريتنا، إلى الخلاء. وكان عندنا كلب صغير يتعلق بأختى، لاحظت حين تركت البيوت ورائى أنه كان يتبعنى أيضا وأنه يعدو ورائى، وأراحنى هذا قليلا، ائتنست به فضممته إلىّ أحتمى به وأنا أعدو. وعندما وصلنا إلى هناك أخذته فى صدرى وجلست إلى جوار قبرها. كان بدر فى السماء، وكانت القبور واضحة، وكنت خائفا أرتعش، وكان الكلب فى حضنى يبكى بالطريقة التى تبكى بها الكلاب، وأنا أحاول أن أسكته وأكلمه لأسكت خوفى. وجلست أنتظر. ولكن محاسن لم تخرج من أجلى لا فى تلك الليلة ولا فى ليال بعدها. انتظرت فى الليالى المقمرة وفى الليالى التى لا تضيئها النجوم ولكنها لم تخرج من أجلى. واعتدت على الذهاب دون خوف حتى عندما كان الكلب يتخلَّف عن صحبتى. وجدت وسط هذه الشواهد الصغيرة، وأنا جالس فى الظلام أنتظر، شيئا كان صعبا أن أفهمه وأنا صغير ومازال صعبا أن أفهمه الآن. كنت أخاطب محاسن فى سرى دون صوت. أرجوها أن تخرج وأنا متأكد أنها تسمعنى وأنها تفهمنى ولكن شيئا ما يمنعها أن تخرج.

وذات ليلة أشفقت محاسن علىّ فخرجت من أجلى.

قال الرجل الأشيب بصوت مرتفع: كنت تحلم. نعست إلى جوار قبرها فخُيل إليك أنك رأيتها، أليس كذلك؟ سكت. فقال وهو يتنفس بعمق: ماذا حدث؟ كيف كانت فى ذلك الحلم؟

فكرت قليلا ثم قلت: كانت محاسن.

قال بصوت نافد الصبر: محاسن كيف؟ كانت محاسن نعم ولكن كيف؟

ـ مثلما كانت دائما، بثوب منقوش قصير وضفيرتين طويلتين تنسدلان على ظهرها، بعينين خضراوين واسعتين ووجه جميل.

ـ ولكنى أسألك ماذا فعلت؟ ماذا قالت فى ذلك الحلم؟

ـ انحنت علىّ وأنا جالس. وضعت يدها على كتفى وعانقتنى بذراعيها ثم قبَّلتنى فى خدى كما كانت تفعل دائما. قالت لا تحزن من أجلى. أنا بخير فى مكان جميل فلا تحزن من أجلى. واذهب الآن. قالت: إن كنت تحبنى فلا ترجع مرة أخرى إلى هنا. لا أريد ذلك.

ـ وأنت ماذا فعلت؟

ـ كما طلبت هى. قمت وذهبت ولم أعد مرة أخرى، إلا فى الأعياد مع أبى وأمى. ليلتها كان الكلب الصغير معى ولم يكف عن النباح والبكاء طوال الوقت.

ـ هذا كل شىء؟

ـ نعم، كل شىء.

ضرب فخْذه بقوة ثم قال: خيبك الله. نعم، خيبك الله! أحكى لك أنا عن الحب والرقص، أحكى لك عن الحياة وعن الدنيا الجميلة فتحكى لى عن القبور والموت!

ـ فى تلك القبور وأنا طفل صغير، تعلمت ألا أخاف من الموت.

عرفت أنه ما هو إلا رحلة هينة. نقلة قصيرة إلى مكان أجمل سنحبه ونألفه أكثر مما نحب دنيانا هذه ونألفها. هل تخاف أنت من الموت؟

لا، أنا خالد.

ضحكت.

قال: اضحك. أنا فوق السبعين ولكنى أكثر منك صحة وشبابا. كنت أنت ترتجف من البرد ولكنى لا أشعر به. أنت (انسطلت) من نَفَسين وأنا لا يغيبنى عن الوعى شىء. أمثالى لا يموتون إلا عندما يريدون أن يموتوا. ولكن قل لى، ما دمت فيلسوفا وزاهدا هكذا فلماذا تشترى أوراق اليانصيب؟

ـ وكيف عرفت أنى أشتريها؟

ـ أعرف؛ المهم لماذا تشتريها؟

ضحكت وأنا أقول: أولا: أنا لست فيلسوفا؛ أنا شاعر.

ـ حقا؟ تلعب بالكلمات بدل أن تلعب بالحياة؟ إذن فهل تستطيع أن تدلنى ما هو الشعر؟

ـ لا أعرف، ولا أحد يعرف. غير أنى منذ كنت صغيرا أحببت الكلمات التى كانت تغنيها أختى.وفى المدرسة أيضا وفى الأغانى كانت تأسرنى تلك الألفاظ التى تصنع نغما حين ننطقها معا. الخيل والليل، حمامة الأيك، بلينا وما تبلَى النجوم الطوالع، وأضحى التنائى بديلا من تدانينا، ولا تلُم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبَى. كنت أفرح بتلك الكلمات حين أقرأها أو أسمعها وأنا

فى المدرسة مثلما كنت أفرح بأشعار قريتنا فقد كان فى بلدتنا أيضا شعراء، يتجولون بين القرى. يأتون الموالد ويغنون لبهية وياسين: وبهية فى المحاكم شدت واحد وكيل.. احكم يا جاضى النيابة جدامك مظاليم. ويغنون للهلالى: لما هجم الزناتى ومال على الهلايل، وأبو زيد يقول نعمين يا من تقاتل.. وفى الأفراح أيضا يأتون. يصنعون من الكلمات هداياهم لصاحب الفرح. فترى وجه العريس يشرق حين يجعلون اسمه لحنا وسط أنغامهم، وحين تفتح تلك الكلمات فجأة أبوابا على عوالم لم يرها قبل الشعراء أحد: وعريسنا أبو فودة الأسمر، ترس داير يسجى فى أخضر. وبعد أن يكون العريس ساقية ماء يروى حبيبته ترى وردة تنبثق فى كفه، لكنها ليست سوى وجه تلك الحبيبة التى هى مرة أخرى نخلة عالية يرتقيها فيضم بلحها الريان الذى طاب وارتوى. صور كثيرة.. أنغام من ألفاظ تصنع صورا وراء صور كانت غاية الفرحة عندى أن أكررها وأنغمها ثم بعد حين أن أقلدها..

قال الرجل الأشيب: إذن فهل كنت ترى أن الشعر هو الفرح؟

قلت: ربما، نعم.

فقال: وماذا إذن عن الشعر الحزين؟ الشعر الذى يجعل الناس تبكى؟

ـ معك حق، ما أكثره. ولكنى أنا كنت أجد فى حزن الشعر شيئا آخر غير الحزن، أو بجانب الحزن، انظر، حين تحزن وأنت تسمع شعرا أو أغنية ألا تشعر أنك أصبحت مختلفا، ألا تشعر أنك أصبحت تحس أشياء لم تكن تعرف أنت أنها فى داخل نفسك؟ أليست هذه

الدموع أيضا فرحة وأنت تلتقى فجأة بذلك الجزء الغائب من نفسك، الجزء الأفضل والأحسن الذى لا تعرفه إلا بالشعر؟

ـ كلام فارغ.

ـ ربما ولكنى أحسه وأصدقه. صدقته عندما كنت فى المدرسة ما أزال، فأخذت أنا أيضا أجول فى الأفراح، وفى حفلات عودة الحجاج إلى بلدتنا. أذهب إلى البيوت عندما ينجح أحد فى المدرسة أو عندما يشفى واحد من مرض. صرت أختلق المناسبات لكى أقرأ للناس أشعارى، لكى أفرح ولكى يفرحوا بما أقول، وكان الناس عندنا بالفعل يحبون كلماتى ويفرحون بها، وكان أبى وأمى يسعدان بما أقول وبحب الناس لى. وعندما جئت إلى القاهرة لكى أدخل الجامعة، كنت أظن أن المدينة التى تصنع كل هذه الأغانى تتحدث شعرا ولكنى منذ أيامى الأولى عرفت الحقيقة. عرفتها فى الجامعة. كنت تريد أن تسمع قصة حب لى؟

إذن فاسمع.. أحببت تلك الفتاة فى الجامعة. كانت هادئة منعزلة، فى عينيها الجميلتين نظرة شاردة إلى البعيد. وكان شىء يوشك أن يولد بيننا. وفى ذلك اليوم كنا فى حديقة الجامعة فوجدت نفسى أقرأ لها شعرا. استمعت إلىّ برزانة. وحين انتهيت بدأ وجهها يتشنج بالرغم منها. وضعت يدها على وجهها. وأخذت تصارع لتكتم ضحكتها، ثم استسلمت وراحت تضحك وهى ترتج، ثم قالت بصوت متقطع والدموع فى عينيها من فرط الضحك: اعذرنى ولكن منظرك وأنت تقول الشعر، منظرك وأنت متأثر، كان يشبه الأفلام الكوميدية. لا يحدث هذا إلا فى الأفلام الكوميدى. قالت ذلك ثم جرت فى خجل وهى ترى خيبتى.

ضحك الرجل الأشيب طويلا وقال: رأيى أنها بنت عاقلة. كان يمكن أن تفعل شيئا أفضل من ذلك مع البنات فى الجامعة.. خيبك الله!

قلت: أجيبت دعوتك من قبل أن تقولها. لم أكمل الجامعة وخبت فى الحياة، وهأنذا موظف بملاليم، وحتى الشعر فى داخلى قد خرس.

ـ ربما أنت لم تفلح لأنك كنت تقول شعرك لمن هب ودب. إن حلَّت بك نعمة فصُنها. لا تبددها على من لا يستحق.

ـ فإن كنت أجد سعادتى فى أن أعطى؟

ـ إذن فعش مع الأوباش. لم تقل لى لماذا تشترى اليانصيب؟

ـ أليس هذا سؤالا غريبا؟ أتمنى أن أربح بالطبع.

ـ فإن ربحت؟

ـ إن ربحت.. أنتظر.. بعد أن أسدد أشياء ضرورية.. سأؤجر شقة نظيفة، وربما أتزوج. لا أجد واحدة ترضى بى وأنا مفلس.

علت ضحكاته ثم قال: صح ما توقعته. أنت واحد من الأصفار. أحلامك أحلام الأصفار.

ثم قال وهو لا يزال يضحك: وبالمناسبة أنت ربحت (البريمو)..

ـ نعم، ماذا قلت؟

ـ ما قلته سمعته. لهذا كان يسأل عنك عباس، (البريمو) واحدة

من الأوراق الخمس التى اشتريتها بالأمس. لهذا كان يريدك صاحب الدكان وكلف عباس بأن يحمل لك البشرى.أوصاه أن يكتم السر ليأخذ المكافأة. لكنى بالطبع سآخذ هذه الورقة.

قلت: أنت تمزح. لم أربح فى حياتى شيئا ولا حتى جنيها أو جنيهين من الجوائز الصغيرة.. (البريمو) مرة واحدة!

فقال: نعم أنا أمزح..

قال ذلك شاردا ثم كفَّ عن الضحك ورأيته ينكس رأسه محدِّقا فى الأرض للحظة ثم فجأة أخرج من جيبه مطواة فتحها بسرعة ولمع نصلها فقمت وأنا أصرخ:

ـ لا تقتلنى!

ولكنه ظل على الأرض، انحنى وراح يزوم فى غضب ورأيته يغمد مديته فى الأرض بقوة، ثم تراجع للخلف وقد اشتد هياجه وأشهر المدية من جديد ثم غرسها فى الأرض وراح يضحك ويصيح صيحات منتصرة وحين رفع المدية كان يتعلق بها جسم أسود صغير يتحرك.

قال: أرأيت؟ هذه عقرب.

وقرب المدية من النار فرأيت العقرب المرشوقة فيها. لم أكن قد رأيت عقربا قبل ذلك فى حياتى. كانت سوداء مستطيلة وأخذت تحرك أرجلها الكثيرة المتعرِّجة حركات سريعة كما يفعل الصرصار حين ينقلب على ظهره بينما راحت تخبط بذنب كبير مقوَّس نحو

جسدها النحيل خبطات منتظمة فيرتطم ذنبها كل مرة بنصل المدية فتسحبه ولكن الحركة نفسها تعود من جديد، أبطأ فأبطأ.

وكنت لا أزال واقفا أرتجف فوقف الرجل الأشيب مسددا نحوى المدية والعقرب.

قال: لماذا تخاف؟ هل يبدو علىّ أننى قاتل؟ أنا.. أنا لا أستعمل العنف أبدا.

وبينما كان يقول ذلك انحنى وأخذ يهز المدية فوق الجمرات فسقطت العقرب فى النار. لم أنظر ولكنى سمعت الطقطقة وأدرت ظهرى وسرت خطوتين نحو الغابة الميتة لكى لا أشم رائحة اللحم المحترق.

وكان هو يتكلم فقال: اذهبى إلى حيث أردت. إلى النار التى جئت من أجلها المفروض أن تنامى الآن فى جوف الأرض فإن جذبك صيف زائف فهذا هو ما تستحقين.

ثم قال: نحتاج مزيدا من النار. حاول أنت أن تأتى لنا ببعض الأغصان.

قلت: يكفى هذا. سوف أنصرف.

قال: هل خفت؟ أنت لم تفهمنى. أنا لم أقل إننى سأسرق منك الورقة أو أخطفها. قلت: سآخذ الورقة. بإرادتك ولمصلحتك. عندما أشرح لك ستفهم كل شيء.

ـ إذن فقد ربحت حقا؟

ـ نعم. ربحت.

ـ لا أصدق هذا. لا أصدق أى شيء تقوله. كل حكاياتك فيها شيء لا يصدق وما حكاية العقرب هذه؟ أنا لم أسمع أن فى هذه المدينة عقارب حتى فى قريتنا كانوا يحذروننا من العقارب لكنى لم أرها. لماذا تظهر لك أنت عقرب سوداء فى الليل؟ وكيف تراها.. من أنت؟ أنا لا أصدقك. لا أصدق أنه كانت هناك هانم.

قال بهدوء وهو يعود إلى الجلوس: إن شئت. لا أرغمك على أن تصدق شيئا.

ثم صمت، وراح ينظف مديته بورقة أخرجها من جيبه، ولما انتهى طواها ووضعها فى جيبه.

قلت: سأنصرف الآن.

ـ مع السلامة.

لم يتطلع إلىّ وبدأ يلف سيجارة جديدة وبقيت واقفا وكنت أرتعش من البرد.

قلت بشيء من التردد: أرجوك أن تدُلنى على الطريق. لا أعرف كيف أعود إلى هذه الحوارى التى جئنا منها. أشار بيده إلى الطريق العمومى دون أن ينظر إلىّ وقال:

ـ انزل الجبل وامش فى العمار. لا حاجة بك إلى الحوارى.

استدرت ومشيت خطوتين فى اتجاه الطريق ثم عدت وجلست قبالته.

قلت: سأبقى لكى تعرف أنى لست خائفا منك. وحتى لو كنت قد ربحت كما تقول والورقة معى فلن أعطيها لك. أنا لا أخافك.

لم يرد علىّ ولم ينظر ناحيتى. سحب نفسا من السيجارة ثم قال: أنا لا أشعر بالبرد. إن كنت أنت تريد نارا فأمامك الأشجار.

ثم أخذ يضحك وهو يقول بصوت خفيض: شاعر! شاعر!

هممت بأن أقوم ثم بقيت مكانى وقلت: أستطيع أنا أيضا أن أحتمل البرد كما تحتمله أنت.

ثم قلت وأنا أضحك: رغم أننى لست خالدا.

لكنه واصل وكأنه لا يسمعنى: ولكن أى شاعر؟ لا بد أن شعرك عن الشقق النظيفة والواحدة التى ترضى أن تتزوج بك.

ثم أخذ فجأة يغنى بصوت خشن: شقتى نظيفة.. واسمها نميرة.

شقتى يا شقتى.. أين أين زوجتى..

وعاد يضحك ضحكاته العالية وهو يقول: خيب الله الأبعد!

قمت غاضبا وأنا أقول: ما العيب فى أن أريد شقة نظيفة؟ ما العيب فى أنى أريد زوجة؟.. ألا يحتاج كل إنسان إلى ذلك؟

كفَّ عن الضحك وقال بهدوء وبطء: اجلس اجلس خيبك الله! شاعر؟ بماذا إذن يحلم بائع الطعمية وجرسون المطعم اللذان يشتريان معك اليانصيب؟ أن يسافرا حول العالم وأن يكتشفا المجهول؟ حسبتك بالفعل شاعرا! خدعتنى للحظة وظننت أنك تفهم. أنت بالفعل مثلهم جميعا. مثل البواب وبائع الطعمية والجرسون..

ـ إذن فأنت تعرفنا جميعا؟ من أنت؟

لكنه استمر.. مثلهم جميعا. مثل هانم التى تنتظر عشرين سنة أن تكسب ورقة الحمامة وأن تذهب لتحج.

قلت: هانم!

لم يرد.

قلت: هذه المـرأة البدينة العجوز هى هانم؟ كيف انتهت هكذا؟

قال وهو يرفع يديه ويقلب كفيه: انتهت نهاية جيدة.. بعد أن طعنها عباس عالجها مدحت بك حبيبها رقم واحد الذى كلمتك عنه.. ثم آواها.. كان كلاهما يحتاج إلى الآخر..هو يحتاج أن يقتنى فى بيته تحفة قديمة وهى تحتاج أن ترجع إلى أصلها.. والآن ها هى معه.. ترعاه فى وقت حاجته.. تصنع نذورا كثيرة.. تطوف فى الموالد تحمل أرغفة العيش والفول النابت.. تحلم أن تكسب ورقة الحمامة لتذهب وتحج.

حين جلست مد لى يده بالسيجارة فأخذتها..

تنهد وقال: ولكن لنعد إلى ما كنا فيه، قلت لى شقة نظيفة؟ حماك الله!.. وتسألنى ما العيب فى الشقة.

قاطعته: لنعد إلى هانم!

قال: لا .. لنعد إلى الشقة!.. لا عيب فى الشقة يا سيدى غير أنها يجب أن تكون قصرا.. لا عيب فى الزوجة.. ولكن اسمع.. اسمع أيها

الشاعر ما دمت تظن أنك تفهم شيئا.. ماذا قلت لى؟ تلك العبارة التى قلتها.. الموت رحلة هينة.. يا سلام! اسمع سأقول لك سرا خطيرا ولكن لا تَبح به لأحد: الموت، هو الموت، هو الموت.

وحين قال ذلك عاد إلى الضحك بصوت مرتفع فقلت: هذا هو رأيك، لكنه ليس رأيى.

قال وضحكاته تتلاشى: ليس رأيا ولكنك لا بد أن تفهم. اسمع سأعطيك نصيحة فالحقيقة أنك لا تعرف شيئا أبدا ولهذا لا تفلح أبدا اسمع يا بنى.. الحقيقة أن هذه الحياة فخ.. فخ نتخبط فيه منذ أن نولد والغلطة أننا نحاول الخروج من هذا الفخ.. بالشعر كما تحاول أنت وقليل مثلك.. بالتصوّف كما يحاول غيرك.. ترى عيونا مسَبلة ومتهدِّلة وميتة قبل الموت.. فى الشهرة، أو المناصب كما يحاول آخرون.. يتسابقون ويضعون خططا ويصنعون مكائد صغيرة لكى يصلوا.. وما يصلون إليه فى نهاية عدوهم هو ذلك الحائط الأصم الذى ترتطم به رءوسهم.. رأيت أيضا من يحاولون عن طريق الخمر والعشق وفى عيونهم نَهم لا يرتوى كأنهم يرشفون سر الحياة نفسه.. ورأيت كثيرا من الأغبياء يتكالبون على اكتناز المال واقتناء الأشياء وكأنهم، مثل أجدادنا القدامى، سيحملون معهم تلك الأوراق وذلك الحديد إلى مقابرهم.. كل تلك أيها الشاعر محاولات لمخادعة الموت.. لنسيان أنه يقف هناك، قريبا جدا.. ممسكا بخيوط الفخ.. وحين يمد يده فى النهاية فهى نظرة الذعر وعدم التصديق نفسها فى كل العيون: الشعراء والأتقياء والفجَّار.. ولكن سأعطيك أنا النصيحة.. لا تتخبط بين الشباك أنت.. حاول أن تفهم.. مأسور؟ فهمنا.. هذه الحياة فخ.. ليكن.. إذن فانتقم.. انتقم طالما استطعت

.. خذ ما تستطيعه يداك.. حاول أيضا ما لا تستطيعه خذ، لا لكى تقتنى ولكن لكى تنتقم.. استحوذ على النساء، على أجملهن فقط.. لا، لكى تحب، ولكن لكى تنتقم .. لا تبال بالأوباش والأصفار.. هؤلاء طوبى لهم.. هؤلاء يرثون الأرض.. وإذن فإن كان الآن فى أيديهم شىء فخذه.. هم لا يعرفون أن يفعلوا شيئا بما فى أيديهم ولكن أنت تعرف.. أنت تنتقم.. إذن فخذ، لا تتردد.. لا تترك لحظة دون أن تأخذ.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا أفعل ذلك كله؟

ـ هل أنت غبى؟ ألم تفهم؟ قلتها لك ألف مرة. هذه الحياة فخ فانتقم.. إن مددت أنا يدى لأصفعك ألا تصفعنى دون تفكير؟ هذه الحياة كف غليظة.. كف تهوى على وجهك منذ مولدك وتدفعك بصفعة واحدة ممتدة إلى القبر.. فمد يدك أيها المغفل واصفع هذه اللبؤة.. كن أنت أيضا قويا مثلى..

ـ كيف؟

ـ كن شريكى.. أعطنى هذه الورقة..

ـ لماذا؟

ـ لكى أستثمرها لك. كم تظن (البريمو)؟ ماذا تظن أنك ستفعل به؟ هو لا يكفى حتى لشقة نظيفة ولا يأتيك بزوجة ترضى بك.. ولكنه معى، كيف أشرح لك ؟.. ستقامر به مقامرة كبيرة ولكنها مضمونة.. معك سينقص المال، معى سيزيد..

ـ ولكن ما دام ذلك المبلغ ضئيلا فى نظرك فلماذا تريده؟ كيف

سينفعك؟ ولماذا، تريدنى أن أثق بك.. من أنت؟ وكيف عرفت أنى ربحت؟

ـ أنا لا يخـفى علىّ فـى باب اللوق دبيب نملة، أعرف كل شىء.

ـ من أنت؟

ـ سأقول لك من أنا. أنا سمسار، مقاول، تاجر، ما شئت. شغلتى المال وأعرف جيدا ما أعمله به.. حين أخذوا منى الكازينو، ثم هدموه بعد ذلك، من أجل الشعب بالطبع،فكرت وقلت ليكن.. الآن يجب أن يأتى المال ولكن دون أن أضعه فى شىء يمكن أن يأخذه منى أحد.. أنا وسيط، تعبر بى الأملاك ولكنى لا أملك شيئا، غير المال بالطبع.

ـ ولكنك لم تشرح لى، ما دام معك المال، فلماذا تريد هذه الورقة بالذات؟

ـ لا هذه الورقة بالذات، ولكن المال. ستفهم ذلك حين تصبح مثلى. المال نعم ولكنه حين يزيد، بأشياء مثل ورقتك، فإنه يزيد، وحين لا يزيد فإنه ينقص.. ألا تفهم؟ لا تهتم سوف تفهم، قلت لك سأستثمر لك مالك.. سندخل به مزادات.. سنشترى تحفا بسعر التراب ونبيعها بالذهب.. لا أحد فى مصر يعرف قيمة الأشياء مثلى.. اسأل عنى إن شئت.. ربما لا يحبنى أحد فى باب اللوق ولكن الكل يعرف من أنا.. سنشترى أرضا رخيصة، نبيعها بأضعاف ثمنها.. أشياء كثيرة سنفعلها، وكلها بالقانون.. سأعطيك إيصالات وستأخذ حقك كاملا. ستعرف معنى أن يكون معك مال يزيد لا مال ينقص.

وساعتها ستصبح قويا.. لن تحتاج لملاليم الوظيفة، ستتفرغ لمواجهة الحياة.. ساعتها ستجد ألف واحدة ترضى بك وحين تقول لهن شعرك فسيجدنه جميلا حتى ولو كان عن الشقق النظيفة وقطتى نميرة.. سوف تنتقم..

سكت الرجل الأشيب، وبقيت أنا أيضا ساكتا أتطلع إلى الطريق السفلى الذى كان يعلو فيه الآن هدير قافلة من سيارات النقل تمر بطيئة ومتتابعة وهى تزدحم فى مقدمتها بأنوار ملونة وتضىء كشافاتها القوية جوانب الجبل والمقابر.

قلت وأنا أضحك ضحكة صغيرة وبعد أن أصبح قويا فسيأتى الموت، أليس كذلك؟ وأنت أيضا أيها الخالد، سيأتيك الموت..

ـ سيأتينى الموت حين أطلبه..

ـ ليكن، فماذا ستفعل؟ ألن تكون فى عينيك أنت أيضا نظرة الذعر وعدم التصديق نفسها؟

قال بهدوء: لا، عندما أطلب الموت ويأتينى فسوف أدخر بعض القوة لكى ألقى ببصقة.

قلت: أما أنا فقد شاهدت فى الدنيا شيئا آخر. شيئا لم تعرفه أنت.

ـ أظن أنى شاهدت فى الدنيا أكثر منك قليلا، فماذا عرفت أنت ولم أعرفه؟

ـ عرفت أبى.. كان فلاحا وكان يملك أرضا صغيرة.. كان يخرج كل يوم فى الصباح ليعمل فى أرضه ويبقى هناك طول النهار.. أحيانا

كثيرة كان أيضا يسهر الليل ليحرس زرعه ولكنى لم أسمعه يوما يشكو.. لم أر فى عينيه دموعا إلا يوم ماتت أختى.. وبعد أن دخلت أنا الجامعة بقليل أصابه مرض فى ساقه أقعده.. أصابته جلطة لم نكن نملك لها علاجا إلا أن ينام فى الفراش.. صرفنا ما معنا وأجَّرنا الأرض لسنوات كثيرة مقبلة وتركت الجامعة واشتغلت.. وكان هو فى فراشه يعتذر لنا لأنه يسبب هذه المتاعب، وحين يأتيه زوار يحاول أن ينهض من فراشه كما ينبغى لهم من الاحترام. لا يتظاهر بذلك بل يحاوله فعلا فيحلفون أيمانا ويدفعونه بأيديهم بالقوة ليظل كما هو.. اشتريت له راديو صغيرا فكان يضعه بجانب أذنه، لا تكاد تسمع له صوتا. لا يكلم أحدا إلا إن خاطبه أحد.. يحمد الله دائما. إذا أراد أن يطلب من أمى شيئا ونادرا ما كان يطلب، لا يقول هاتى هذا أو افعلى كذا. يقول هل تذكرين فى العام الماضى حين أكلنا الشىء الفلانى؟ أو يسألها إن أراد أن تسنده ليجلس خارج الدار، هل أخرجت الكتاكيت فى الشمس يا أم فلان؟ شمس اليوم دافئة..أحيانا كانت أمى تبكى.. تقول له أنا امرأتك وخادمتك.. لم لا تأمرنى بما تريد؟ فيدعو لها وتدعو له.. لم أسمعه مرة يكلمها عن الحب ولا سمعتها هى تتكلم عنه، ولكنها حين كانت تساعده على أن يلبس جلبابه، حين تسند ظهره لتسقيه، حين تدلِّك له ذراعه وقدميه بأصابعها الخشنة المتشققة بتلك التشققات المسودَّة قرب أظافرها فقد كانت هذه الأصابع تنطق شيئـا يتجاوز الحب نفسه. وعندما جاء أبى الموت كنت إلى جواره.. لم أرَ فى عينيه ذعرا بل كانت على شفتيه ابتسامة جميلة. اعتذار نهائى لما سببه لنا من انزعاج وألم، ولكن كان فى عينيه رضا وسلام.

وحين سكت قال الرجل الأشيب: ما معنى هذه القصة؟

ـ إن لم تفهم فلا جدوى من أن أشرحه لك.

ـ معذرة لغبائي ولكني فهمت من قصتك شيئا آخر. فهمت أنه لو كان معك مال لاستطعت أن تعالج أباك، أن تخفف آلام مرضه على الأقل، أليس كذلك؟

ـ ربما..

ـ ألا تشعر أنك لو كنت قويا لاستطعت أن تساعده هو وأمك؟

ـ فعلت ما استطعت.. وكنت أحبه.. كان هو يعرف ذلك وكان يسعده..

أخذ يضرب كفًا بكف وهو يقول: الآن بالفعل أفكر أن أقتلك!.. هل كنت أكلم الهواء طول الوقت؟ ألم يدخل رأسك شيء؟ ألم تفهم معنى ما قلته لك؟ أما أنا فقد عرفت الحقيقة منذ عرفت ما هي الدنيا. كنت في البداية ساذجا مثلك. كنت أذهب إلى مدرسة راقية وأقرأ أشعارا وكتبا وموسيقى وكل هذه الأشياء.. كان أبي تاجرا غنيا وكنت ولده الوحيد.. أطيعه وأطيع أمي وأذاكر دروسي وألعب الرياضة في الصباح وأغسل أسناني بالمعجون كل ليلة.. ولكن ذلك كله لم ينفع.. ذات يوم جاءت جارة لي وأخذتني من المدرسة.. قالت أبوك جُرح في حادثة سيارة..ولم يكن هذا صحيحا.. الصحيح أن أبي وأمي ماتا معا في حادثة السيارة.. كنت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وكانت جارتنا هذه أوروبية في حوالي الخمسين.. وحين صفّوا تركة أبي لم يبق لي شيء غير هذه الشقة الواسعة في باب اللوق، لا أملك حتى إيجارها.. كنت وحيدا تماما.. ولكن جارتي تولتني.. كانت تملك الكازينو، وقالت

لى إن شئت أن تكمل تعليمك سأصرف عليك. وإن شئت علمتك الحرفة.. وهكذا ذهبت إلى الكازينو.. ظن النـاس أننـى قريبها أو ابنهـا ولهـذا كانـوا يقولـون لـى يا خواجة.. وقالت لى دعهم يقولون ذلك.. هذا ينفع.. فقد كان الخواجات أيامها يخيفون. وعلمتنى جارتى أول دروسى: قالت لا تتعلق بامرأة فى الكازينو مهما كان جمالها، اترك الناس يحبون ويسكرون ويقامرون إن شاءوا. أما أنت فلا تتعلق بشىء لكى تملك كل شىء. ووعيت الدرس، فحين تركت جارتى البلد بعد ذلك بسنين كان معى من المال ما يكفى لكى أشترى الكازينو، وساعتها قالت لى: الآن أنا سعيدة لأنك تعلمت كل شىء.. الآن لا أخاف عليك.. وبالفعل كنت قد تعلمت القوة، قوة أن يملك الإنسان. لا أقصد. المال بالطبع. وإن كان ضروريا وإنما أن تملك فتصير حرا وتصير قويا. أن تكون سيد نفسك فتستطيع أن تنتقم من الدنيا بأن تفعل ما تشاء. ولا تحسبن أيها الشاعر أن هذا شىء سهل، فما أقل الأقوياء فى هذا العالم وما أكثر الأوباش. كنت فى شبابى من النوع الذى تحبه النساء فاخترت منهن ومتعت نفسى كثيرا، غير أن واحدة لم تملكنى.

ثم جاءت هانم، كانت شيئا جديدا علىّ، ملكتنى بالفعل ولم أملكها، كانت لعبة صغيرة وجميلة بينى وبين هذا الفخ الدنيوى. تمنَّعت علىّ؟ هذا جميل. الحصول عليها بعد ذلك أجمل. كل إنسان يعرف أن النساء حين يرتمين دون مقاومة فلا لذة فيهن، وأنه بقدر صعوبة الحصول بقدر ما تكون اللذة. تحب عباس؟ تتمسك به؟ تعيش جارية له؟ ليكن. سنرى. ذات صباح ناديت عباس، لم يكن يشك فى شىء. جاء وديعا ومطيعا كعادته حين كان يقف أمامى.

يشبِّك أصابع يديه المرتخيتين أمام جسمه ويحنى رأسه حين أكلمه. وتظاهرت أنا بغضب لم يفهم له سببا. قلت له يا عباس من الليلة لا تأت إلى هنا.. لم أعد أريدك.. قال : لماذا؟ فلفقت له شيئا.. تقصيرا من نوع ما ، مشاجرة فى الكازينو لم يفُضها، أو شيئا ضاع ولم ينتبه إليه. لم أعد أذكر الآن ما قلته. ولكنى أذكر كيف ظل واقفا أمامى يتمتم ويرفع يده إلى صدره وإلى رقبته ويقسم ويقول أشياء.. وأذكر أنه هجم على المكتب وقبَّل يدى وأنه بكى. قلت له: يا عباس.. أنت تعرفنى.. كلمتى واحدة: خذ ما تستحق هذا الشهر وانصرف. ومضت أيام، كان يأتى كل ليلة ويقف بقامته التى تشبه جذع الشجرة على الرصيف المقابل للكازينو. يرفع يده ليحيينى حين أدخل الكازينو، وعندما أخرج فى الفجر أجده ما زال واقفا هناك فأتظاهر أنى لا أراه. ودبرت كل شىء مع أصحاب الكازينوهات. كنا نتبادل هذه المجاملات الصغيرة. لا نسطو على الأرتيستات ولا على العمال من الكازينوهات الأخرى إلا إذا وافق صاحب الكازينو الذى يعملون فيه. وهكذا لم يجد عباس أحدا يعمل عنده، وأيامها كان صعبا أن تجد العمل، أى عمل. وكنت أعرف عباس كما أعرف هانم كما أعرف راحة يدى. عرفت بالضبط ما سيفعل. عرفت أنه بعقله الصغير الغبى سيرفض أن تصرف عليه هانم مهما كان ما تكسبه هى، فهو الرجل، الفتوة، الشهم.

وانتظرت. تركت هانم أيامها تماما، لم أكن أغادر مكتبى فى الكازينو. أسمع الطبل وأسمع العود وأتخيل ما تفعله مع تلك الدقات الخافتة على الطبلة، مع ذلك التردد العالى على وتر العود. أرى ساقيها الطويلتين تتحركان وتدوران، شفتيها المتوردتين تنفرجان وهى تلهث

والعرق يسيل على وجهها .ربما هى الآن تخرج لسانها وهى ترقص فتلحس هذا العرق من على شفتيها أو تمد يدها وتمسحه من صدرها اللامع. أرى كل ذلك وأنا أغمض عينى فى مكتبى وأنتظر. أعرف متى ستنتهى النقود من يد عباس. أعرف متى سيرفض ما تعرضه عليه من مال. أعرف متى سيتشاجر معها ومتى سيطردها من غرفته. وأعرف متى ستجيء هانم. نعم. تماما، ها أنا أسمع الطبلة والعود أسرع من كل ليلة. أسمع صرخات الجمهور وآهاته أعلى من كل ليلة، وها هو الرقص ينتهى مبكرا ليلتها. نعم، تماما.. ها هى.. فى الخارج يعلو الصراخ «نانا..نانا» والباب يفتح وهانم تدخل. تدخل المكتب وتغلق وراءها الباب. منفوشة الشعر. يغمر العرق صدرها المشقوق الذى يلهث ويشهق. ترتمى جالسة على الكنبة التى تواجه مكتبى.. تمد ساقيها أمامها تحاول أن تستجمع أنفاسها وهى تتطلع إلىّ بعينيها الواسعتين بنظرة ثابتة طويلة. لا تتكلم ولا أتكلم. هى تفهم وأنا أفهم، ولكن فجأة تختلج الأهداب السوداء الطويلة، وتلمع العينان بدموع تطفر فيهما وتقول فى نفس واحد «ستعيد عباس»؟ ولكننى أقول لها وأنا أرفع أصبعى «عندما أريد».

هكذا جاءت إلىّ يا سيدى. حزينة على نفسها ودموعها تبلل خديها.. ولكن هانم لم تكن تعرفنى. لا يا سيدى. ما كانت تعرفنى قبل تلك الليلة. لقد كنت ملكا فى الحب. أنا لا أعرف كيف كان عباس الجلف يحبها. ولكنها معى عرفت حبا آخر غير حب الأوباش. حبا يليق أيضا بملكة. خضت معها بحارا لم تعرفها من قبل ولا سمعت بوجودها. وفى تلك البحار كان شراعها البكر الجميل يرفرف بسعادة ما حلمت هى أنها فى هذه الدنيا وكنت أراقب الدهشة والفرحة فى

عينيها يوما بعد يوم. أراقب النشوة في جسمها وهي ترقص كل ليلة، خفيفة، سكرى بسعادتها كأنها تريد أن تنفض عنها كل شيء غير ذلك الفرح الجديد الذي تحمله في داخلها، فلم تعد جسمًا ولا وزنًا، بل فرحة خالصة تشفّ وترقص وتتحول ضياء وألقا يلقى في المشاهدين نورا ونعمة ما عرفوها من قبل فيصيبهم بالفعل مس وهم ينادونها وقد تجسّد أمامهم للحظة ذلك السر، تلك الحياة، تلك الحقيقة التي قضوا حياتهم يبحثون عنها فلم يجدوها، ولكنها الآن هنا، أمامهم، مرة واحدة، للحظة من عمرهم. وحين ينتهي الرقص وأسبقها إلى المكتب، تأتي ورائي، تلمع عيناها ويرتجف جسمها، تنحني وتركع، تقبِّل يدي وتلعقها وتمرغ وجهها في جسدي كقطة متوسلة.

وعندما كفَّت هانم عن السؤال عن عباس، أعدت عباس.

لم أقل لها شيئا لكنها فوجئت به ذات ليلة وهي تدخل يتجول في الكازينو، جاءت وسألتني بنظرة خائفة: أعدت عباس؟ قلت: نعم، والآن أنت تعودين إليه، قالت: كيف؟ قلت: هكذا.. ما بيننا أنا وأنت انتهى.. ارجعي إلى عباس..ثم تغيبت أياما عن الكازينو، حدث فيها ما حدث.

ـ حكيت لعباس ما كان بينكما وأوعزت له بالانتقام منه؟

ـ مطلقا.. لم أقل له كلمة، فقط أعدته إلى العمل.

ـ ولكنك كنت تعرف ما سوف يحدث.

ـ كنت أعرف أنني انتهيت من هانم.

ـ أو ربما كنت تعرف أنك يجب أن تنتهي منها.

ـ وإلا فإلى ماذا كنت أصير أيها الشاعر؟ واحدا من الأوباش؟ أفعل مثل عباس؟ أنتهى مثله؟ أحمل صندوقا فى يدى وأسرح فى المقاهى؟ كانت تجيئنى أخباره وأخبارها. لم تصدق هانم فى البداية ما حدث، ظنت أننى أختبر حبها لى. ورفضت أن تعود إلى عباس، ثم انتظرت أن أرجع، وبينما كانت تنتظر وبينما كان الأمل يذوى فى داخلها كان رقصها أيضا يذوى ليلة بعد ليلة. طار السحر ورجعت هانم العالمة. تهز أردافها، ترجرج صدرها، تعرِّى ساقيها، تتحرك شاردة ولا تكاد تخطو على إيقاع ولا نغم. وكانت الناس تتطلع فى دهشة، ماذا جرى؟ أين هانم؟ لم يعرفوا أن هانم ماتت، إنه كان أيسر أن تنادى أنت أختك فى المقابر فتعود إليك عن أن ترجع هانم التى كانت.. ولكن عباس لم يصدق، كان يقف هناك فى تلك الليلة يتطلع إلى هانم التى وقفت على المنصة صامتة، مفرودة الذراعين شاردة بينما تتابع الطبلة إيقاعا خافتا ولكن مستمرا، تحاول الطبلة أن توقظها، أن تستردها، وهانم تقف هناك، جثة ممشوقة مفتوحة الذراعين ولكن بلا حركة. فجرى عباس، جرى إليها، صعد إلى المنصة، أمسكها من كتفها، راح يهزها، راح يصفعها، راح يرفعها عن الأرض ويلقى بها، يرفعها ويلقى بها، وهو يقول: ارقصى.. ارقصى يا فاجرة.. وحين أوقفها على قدميها بعد ذلك كله تطلعت إليه هانم صامتة بعينيها الواسعتين ثم مدت يدها، ثم شقت فتحة ثوبها، ثم ضربت صدرها العارى وقالت وهى تضرب لحمها: ضع فى جسمى رقصا يا عباس.. ضع فيه رقصا.. فجذبها عباس من شعرها الطويل، ثم أمال رأسها، ثم حز رقبتها.

سكت الرجل الأشيب وسكت أنا أيضا.

بعد فترة قلت: الآن أصدقك.

ـ ماذا تصدق؟

ـ أنك لم تحب هانم أبدا. أنك عملت بوصية جارتك ولم تحب شيئا أبدا.

ـ رددت للدنيا صفعتها.

ـ وكذبت عليّ حين أوهمتنى أنك أحببت هذه المدينة يوما وأنك أحببت باب اللوق ولكنى الآن أعرفك.. نعم، كيف فاتنى أن أعرف ذلك منذ البدء؟ ألم تكن أنت الذى قطعت الأشجار فى المدينة؟ ألم تكن أنت الذى هدمت بيوتها الصغيرة الجميلة؟

ضحك وهو يقول: أنت مجنون. أنا لم أقطع فى حياتى غصنا ولا هدمت طوبة.

ـ نعم تماما كما أنك لم تذبح هانم بيدك.

ـ وماذا جرى لهانم؟.. رجعت لأصلها، أليس كذلك؟ نسيتنى ونسيت عباس ولعلها نسيت كيف كانت هى نفسها فى تلك الأيام البعيدة. نلتقى كلنا فى باب اللوق فلا يكلم أحدنا الآخر. ربما كل سنتين أو ثلاث سنوات تتطلع فى وجهى وهى تمشى فى الطريق تجر جسدها الضخم وتحمل فى يدها دجاجة أو كيس فاكهة فتقف وتتفرَّس وجهى وتقول: «كيف حالك يا خواجة؟» كأنها تحاول أن تتذكر من أكون. نعم يا سيدى، هذه هى هانم، هذه هى النهاية التى جئتَ إلى هنا لتسمعها. والآن فأنت تعرف كل شىء. أليس كذلك؟ ها هو كل شىء قد قيل. عرفت كيف ينتهى من تصفعهم الدنيا، وماذا

عليك أن تفعل لترد للدنيا صفعتها. فماذا اخترت؟

ـ تقصد الورقة؟

ـ أقصد ما هو أكثر، ولكنى الآن أقصد الورقة. نعم..

ـ لا أستطيع أن أعطيها لك.نعم، أنا أصدقك. أصدق أنك تستطيع أن تفعل بها ما لا أستطيعه أنا. أصدق أنك تستطيع أن تربح لى مالا كثيرا وأنها معك ستزيد ومعى ستنقص، ولكنى لا أستطيع.

ـ فإن كنت تعرف كل ذلك، ألا يكون غباء أن ترفض؟

فقلت وأنا أقوم وأضحك ضحكة صغيرة: أظن أنى واحد من الأوباش.

تنهد وقال: نعم، أنت لم تكذب.

قلت: وهل تريد أن تعرف شيئا آخر؟ أظن أننى أريد أن أبقى واحدا منهم. سلام.

استدرت وأخذت الطريق إلى منحدر الجبل وعندما ابتعدت خطوتين نادانى.. قال : أيها الشاعر..

التفت إليه. كان يجلس وهو يعتمد بيديه على ركبتيه وقد أحنَى رأسه وانسدل شعره الأبيض الناعم على جانبيّ وجهه وكان يضحك ضحكات خافتة.. ثم قال وهو يهز رأسه دون أن ينظر إلىّ:

ـ أيها الشاعر سوف تبحث عنى وستعود إلىّ.

قلت وأنا أقف مكانى: ومن يدرى، ربما بحثت أنت عنى.

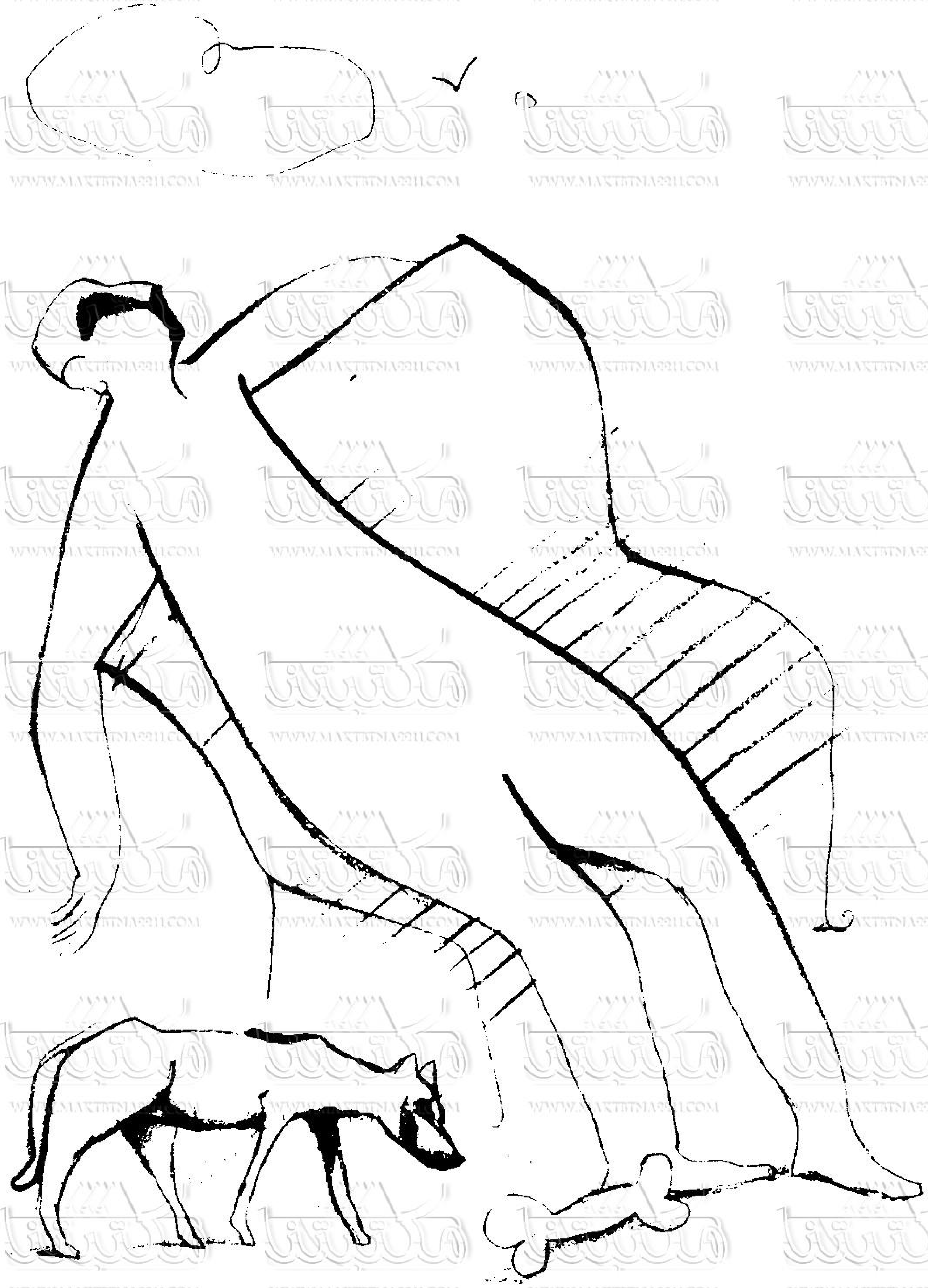
فقال: لا أظن.

عدت أمشي وكانت النجوم قد بدأت تنسحب من السماء وبدأ غمام أبيض يصبغ الليل.

ومن وسط المقابر صاح ديك.

(١٩٨٤)

# فى حديقة غير عادية



كنت أمر أمام تلك الحديقة عندما ظهرت الشمس من بين سحابتين كبيرتين سوداوين. دخلت وجلست على أقرب مقعد معرِّضا وجهى للشمس. قلت لنفسى ربما لا تبقى الشمس سوى دقائق. فردت ذراعى على المقعد الخشبى ومددت ساقى ورحت أنظر للسماء. أراقب السحابة الكبيرة وهى تتمزق إلى دوائر صغيرة داكنة تصطبغ حوافها الشفافة بحُمرة الشمس. استغرقت فى ذلك وأسعدنى أن الشمس ستبقى، فلم أنتبه إلى الحديقة، ربما كانت الرائحة هى أول ما لفت نظرى. وعندما نظرت أمامى رأيت أربعة كلاب فى مربع مرصوف بالأحجار وسط الخضرة. كان أحدها يمسك عظْمة بين أسنانه، يلقيها ويتشممها لفترة ثم يلتقطها بين أسنانه من جديد. لكننى عندما قمت أبحث عن مكان آخر فى الحديقة طاردتنى رائحة الكلاب أيضا. ووجدت وأنا أتجول لافتة مكتوبا عليها: «هذه الحديقة من أجل كلبك فحافظ عليها. هذه الحديقة تحت حماية شعب المدينة».

كانت هناك لافتات أخرى تحمل أسهما يشير أحدها إلى بيت راحة الكلاب وآخر إلى ملعب الكلاب. وارتطمت قدمى بشىء وعندما نظرت وجدتها عظمة أخرى كبيرة مكوَّرة الطرفين كالتى كانت بين

أسنان الكلب. فحصتها بقدمى ووجدت أنها من البلاستيك.

ملأنى الغيظ. جاءت إلى ذهنى الأفكار التى تأتينى كلما رأيت كلابهم السمينة المدللة: هؤلاء القوم يطعمون كلابهم بما يكفى لإشباع الأطفال فى بلادنا.. هؤلاء الأوروبيون استنزفوا كل ثروتنا لعشرات السنين حتى أفقرونا وبنوا بلادهم وها هم يطعمون بثروتنا المسروقة كلابهم... إلخ إلخ. وتمنيت أن أمر بتلك الحديقة فأخنق كلابها واحدا واحدا حتى أستريح. ولكننى كنت أعلم أنى لو خدشت أحدها فسيقتلنى صاحبه.

اكتفيت بالتوجه بسرعة نحو باب الخروج، ولكننى قبل أن أصل نادتنى تلك السيدة العجوز بصوت متهدج: «مسيو... مسيو». كانت تستند إلى عصا وتشير إلىّ بيدها الأخرى فتوقفت. بدا أنها لا تستطيع السير فتوجهت إليها.

لما وصلت قالت وهى تلهث: هل كلبك هو «اللولو» البنى الصغير هناك؟

ـ لا.

تلفتت حولها بيأس وقالت لا أعرف أين صاحبه ولكن لا بد أن يأخذه من هنا. يبدو أنه مريض ويمكن أن يعدى بقية الكلاب.

ـ كيف عرفت؟

ابتسمت فازدادت التجاعيد فى وجهها وقالت:

ـ مسيو.. إذا نظرت إلى عينىّ كلب أستطيع أن أقول لك إنه مريض. أستطيع أيضا أن أحدد مرضه.

ـ وإذا نظرت إلى عينى إنسان أيضا؟

ـ الناس أكثر تعقيدا.

كنا نقف إلى جانب مقعد خشبى فاستندت إلى ظهره بيدها وظلت تتطلع إلىّ وهى تبتسم، وعندما ابتسمت لها وعدت أتحرك سألتنى:

ـ ولكن أين كلبك؟

قلت بجفاء: ليس عندى كلب.

زرت عينيها وتطلعت إلىّ بدهشة ثم قالت: أفهم.. أظن أنك... توقفت عن الكلام وبذلت مجهودا كبيرا لكى تجلس على المقعد الخشبىّ. ظلت ترتكز على المسند بيد وتتشبث بعصاها باليد الأخرى بينما تهبط ببطء وجسمها كله يرتعش، وعندما لمست المقعد الخشبىّ تنهدت وراحت تلهث وأشارت لى بيدها أن أجلس إلى جوارها. فكرت أن ألوِّح لها، وأواصل السير ولكنى خجلت أن أخذلها فجلست.

كانت عجوزا نحيلة.. ومن ملبسها بدا أنها فقيرة.. كانت ترتدى ثوبا أسود من القماش الصناعى فوقه جاكتة من الصوف الرمادى، وكانت تعصب رأسها بإيشارب مشجر بزهور بنفسجية تطل منه خصلات من شعرها الخفيف الأشيب، وعلى ظاهر يدها تتناثر فى جلدها الرخو المتغضِّن تلك الدوائر البنية الصغيرة التى تظهر فى أيدى العجائز.

جلست على حافة المقعد لكى تفهم أنى أريد أن أنصرف ولكنها واصلت من حيث توقفت. قالت:

ـ أظن أنى أفهمك. أنت تحب الكلاب ولهذا تأتى إلى هنا؟

شعرت أنها تطالبنى بتبرير فقلت: نعم.

ـ ولماذا لا تقتنى كلبا؟

ـ كان عندى كلب ومات.

انتفضت ومالت بجسمها بصعوبة لكى تواجهنى وقالت: كيف؟

حين رأيت هلعها فكرت أن أقول لها إنى أكذب ولكنى خشيت عليها من صدمة ذلك الاعتراف أيضا. تماسكت ورسمت على وجهى حزنا وقلت: أظن أنها كانت صدمة عصبية.

ازدادت عيناها اتساعا وهى تسألنى مرة أخرى: كيف؟

ـ حادثة.

تراجعت إلى الخلف ببطء وقالت وهى تهز رأسها: إن كان يحزنك أن تتكلم عنه فأنا آسفة.. لا تتكلم.

هززت رأسى وسكت.. كانت أعصاب الكلاب وحالتها النفسية هى أول ما طرأ على ذهنى. فمن قريب حكى لى صديق مصرى أن صاحب أحد (البنسيونات) رجاه أن يغادر (البنسيون) لأنه يظهر انزعاجًا من كلب الخواجة مما يؤثر على حالة الكلب النفسية، أخذ صديقى الأمر على أنه نكتة فاضطر صاحب (البنسيون) أن يقول له

صراحة إنه لا يريده بدءا من ذلك اليوم وعليه أن يدبر مكانا لنفسه قبل المساء.

ولكن السيدة تنبهت فجأة وقالت: معذرة.. سامحنى إن عدت للموضوع،ولكن أظن أنى لم أسمع جيدا، هل قلت صدمة عصبية أم قلت حادثة؟

ـ أنت سمعت جيدا يا سيدتى وأنا قلت الاثنين فى الحقيقة. كانت البداية حادثة سيارة أصابت الكلب إصابة خفيفة.. أخذته للطبيب.. أقصد للبيطرى فعالجه وقال إنها حادثة بسيطة.. لكنه بعد قليل مات.. أظن أنها الصدمة العصبية.

راحت السيدة تهز رأسها وتقول: أنا آسفة.. أنا آسفة.. هؤلاء السائقون المتوحشون. ماذا تنتظر وقد امتلأت المدينة بهؤلاء الأجانب وسياراتهم؟

ـ لا أنتظر الكثير.. ولكنى أنا أيضا أجنبى.

وضعت يدها على صدرها وقالت: معذرة. أرجوك أن تعذرنى. أنا لا أقصد بالطبع. هناك أجانب وأجانب. ولكن أنت بالطبع.. لا يمكن..

قلت: نعم..نعم..

هممت أن أقوم، كانت الشمس الآن تغمر الحديقة بالدفء، وتصاعدت الرائحة النتنة من الكلاب ومخلفاتها فأردت أن أنصرف. ولكن بينما كنت أنهض من المقعد قالت السيدة:

ـ من أى بلد أنت يا مسيو؟

ـ من مصر.

مدت يدها فأمسكتنى من يدى بينما يدها الأخرى لا تزال على صدرها وقالت:

ـ أووه.. مصر!.. مصر بالطبع.. ولكن فلننظر.. أنت من مصر.. عندما أقول الأجانب فأنا أقصد...

قلت محاولا أن أخلص يدى من يدها برفق: لا تهتمى يا سيدتى.. أنا أعرف أنك لا تقصدين شيئا سيِّئا،ولكن فى الواقع أنا أريد الآن أن أذهب إلى...

ولكن بدا أنها لا تسمع شيئا مما أقول وظلت تواصل:

ـ مصر.. مصر الجميلة.. هل تعرف أنى ذهبت إلى مصر؟

عدت أجلس إلى جوارها وأنا أقول: حقا؟

ـ نعم.. نعم.. من عشرين سنة.. ربما أكثر.. كان ذلك فى حياة زوجى.. ذهبنا معا.. كم كانت جميلة مصر.. كم كانت جميلة..

ـ وماذا رأيت هناك؟

ـ أخذنا باخرة من القاهرة إلى الجنوب.. فى النيل.. لا أنسى سحر ذلك المنظر. القمر على النيل فى الليل.. القمر على النيل الطويل إلى ما لا نهاية.. الظلمة فى الجانبين والمركب يسبح فى طريق طويل من النور. لا أعرف كيف أصف ذلك. ثم ذلك المعبد الجميل فى الجنوب، معبد فوسنترن.

فكرت قليلا ثم قلت: ربما معبد «أبو سمبل»؟

فقالت: نعم.. نعم.. أنا آسفة.. معبد بوسنتل.

ـ وهل أعجبك المعبد؟

ـ أعجبنى؟ سيدى.. دعنى أقل لك بكل صراحة: هذه أجمل ذكرى فى حياتى. كم تحدثنا بعدها أنا وزوجى عن ذلك المعبد.. أى جمال..وأن تتصور أن ينحتوا كل ذلك فى الصخر!.. كل ذلك فى الصخر؟ بدون آلات؟

ـ لا بد كانت لديهم آلات.

ـ أقصد ماكينات.. مصاعد وأشياء من هذا النوع.

وراحت تهز رأسها متعجبة ثم قالت: عجيب كيف اندثر هذا الشعب..

ـ من اندثر؟

ـ المصريون.

ـ ولكنهم لم يندثروا.

ـ كيف؟

قلت وأنا أبتسم: نحن نعتقد أننا أحفادهم. فقالت وهى تحول وجهها: آه.. نعم.. بالطبع. إذا نظرت للمسألة من هذه الزاوية.. نعم.. أقصد ولم لا؟

فى تلك اللحظة جاء كلب مدبوزه بينى وبينها على المقعد فأخذت تربِّت على رأسه. توتر جسمى كله كما توتر منذ عضنى ذلك الكلب

فى القاهرة وأنا صغير.. لكننى ظللت متماسكا. كان كلبا بنيا مرقّطا ببقع بيضاء. كان نحيلا وفى عينيه نظرة حزينة.

قالت السيدة: انظر كم هو نحيل..

ثم عادت تخاطب الكلب: لوك يا صديقى العزيز لماذا لا تأكل كما يجب؟.. لماذا لا تأكل؟ انظر يا مسيو كم هو نحيل..

ثم قالت وهى تأذن لى متعاطفة معى لأننى فقدت كلبى فى ظروف صعبة: تستطيع أن تلمسه.

بدا من لهجتها الحادة أنها تقدم لى معروفا كبيرا فمددت يدى بينما جسمى كله لا يزال مشدودا وبالكاد لمست رأسه.. فقالت السيدة وهى تدفعه كله نحوى: لا..لا.. تستطيع أن تلمسه وأن تلعب معه كما تشاء.. لوك طيب.

قلت لنفسى هذه مصيبة حلّت ولا مفر منها فلتستمر اللعبة. أخذت ألمس الكلب لمسات خفيفة للغاية وأنا أبتعد عنه بجسمى بالتدريج بحيث لا تلاحظ السيدة وقلت لها:

ـ هل لوك كلب صعب؟ هل يتعبك لوك فى الأكل؟

كنت قد سمعت هذه الجملة فى التليفزيون فى إعلان عن أكل الكلاب فكررتها كما هى.

قالت السيدة مستنكرة: لوك صعب؟.. يا سيدى، أبدا. ولكنى أصدق تماما ما قلته عن الصدمة العصبية. عندما دخلت المستشفى تركت لوك فى تلك الحضانة للكلاب . كانت أفضل حضانة وكانوا يتقاضون مبلغا مرعبا كل يوم. ومع ذلك فعندما خرجت وجدته نحيلا

هكذا. قالوا لى هناك إن حالته النفسية ساءت عندما غبت عنه. أصدق هذا، ولكنى أظن أيضا أنهم لم يكونوا يهتمون بطعامه كما يجب. تصور يا سيدى.. مع كل تلك النقود التى أخذوها.

تنهدت مبينا تعاطفى ثم قلت وأنا أنهض: يكفى هذا تماما. شكرا لك يا سيدتى لهذه اللحظات..

ثم ملت ناحية الكلب وقلت بصوت رقيق وأنا أشير له من بعيد: وشكرا لك يا لوك..

لكن السيدة تطلعت إلىّ فى ضراعة وقالت: يمكنك أن تبقى قليلا مع ذلك. دقائق. نتحدث معا. أقصد إذا أردت.. أقصد إن كنت لا أعطلك عن شىء..

قلت: فى الواقع..

ثم جلست.

قالت العجوز وهى تربِّت على الكلب: هذا السيد المصرى لطيف يا لوك. قل لهذا السيد ألا يحزن لأنه فقد كلبه. قل له إنه يستطيع أن يقتنى كلبا آخر.

شعرت بالذنب وشعرت بانقباض فظللت صامتا.

قالت السيدة: هل تبقى هنا طويلا؟

ـ هنا أين؟

ـ هنا.. فى بلدنا؟

ـ ربما أنا مضطر أن أبقى الآن على أى حال. عملى هنا.

ـ تعمل هنا منذ مدة؟

ـ نعم منذ مدة طويلة..

سكت لحظة وسكتت هي فقلت: لكم مر من الوقت. ولكن كأنما حدث ذلك كله بالأمس. جئت لكي أتعلم، وبينما كنت أتعلم أحببت فتاة من هنا واتفقنا على الزواج. اشتغلت هنا لنبقى معا ولكننا تشاجرنا وانفصلنا.. ثم تصالحنا وعدنا.. ثم تشاجرنا ومر الوقت.

ـ ربما تتصالحان من جديد.

ـ لا يا سيدتي. كان ذلك من سنين بعيدة. لم أرها منذ سنين وأظن أنها تزوجت. هذه حكاية انتهت من زمن. ولكنني لم أنتبه إلى الوقت. الآن حين أذهب إلى بلدي يفرح بي إخوتي وأهلي، لكنهم يعاملونني كضيف زائر. أشعر بالحرج وأشعر أن من الصعب عليّ أن أبدأ من جديد.. أتمنى ولكني لا أستطيع.

ـ وهنا، هل تشعر بالوحدة؟

ـ نعم، كثيرا.

ـ أليس لك أصدقاء؟

سكت مرة أخرى ثم قلت: لي أصدقاء وليس لي أصدقاء.

أظن أن الإنسان لا يكون له بالفعل أصدقاء خارج بلده. لا يكون الإنسان هو نفسه خارج بلده ليصادق كما يجب أو ليحب كما يجب تتغير المشاعر. تأتي الأحزان ثقيلة وتذهب الأفراح بسرعة.

ـ لا أفهم ما تقول تماما يا سيدي. ولكني أعرف ما هي الوحدة.

ـ أليس لك أصدقاء؟

ـ كان . معظمهم رحلوا. أنا أيضا سأرحل قريبا..

ـ هيا.. لا داعى لهذه الأفكار السيئة. انظرى هذه الشمس الدافئة التى طلعت دون أن نتوقعها..

تطلعت السيدة إلى السماء كأنها تتأكد أن الشمس هناك ثم قالت: ستسطع عما قريب ولن أكون هنا.

كانت تتكلم باستسلام شديد فازددت انقباضا ولزمت الصمت.

قالت هى: لى ابنة متزوجة تسكن فى حى بعيد. تأتى لتزورنى كل يوم أحد، هى أيضا أرهقتها السن والحياة. أحيانا عندما يكون الجو قاسيا أتصل بها بالتليفون وأطلب إليها ألا تجىء. أحيانا تأتى وأكون مشتاقة جدا للحديث معها، يخيل لى أنى سأقول لها أشياء كثيرة. أكون قد أعددت لها الشاى والفطائر وأعددت لها أشياء كثيرة، وأعددت نفسى لكلام كثير، ولكن بعد أن نشرب الشاى معا وأسألها عن زوجها، لا يأتى الحديث. تستغرق هى أيضا فى التفكير وتقول كلاما قليلا. لا أريد أن أكون شريرة. هى بنت طيبة. ربما تكون لديها مشاكل لا تريد أن تحدثنى عنها ولا أن ترهقنى بها. أعتقد أنها تحبنى وأنها ستحزن كثيرا عندما أرحل. فى كثير من الأحيان بعد أن تقبلنى هى وتذهب أحكى للوك الأشياء التى كنت سأقولها لها.

أليس كذلك يا لوك؟

عادت تربِّت بيدها المرتعشة على الكلب الذى وضع رأسه فى حجرها مستسلما ثم قالت منهمكة فى الحديث إلى الكلب وكأنها

نسيت وجودى: نحن عجوزان وحيدان يا لوك، ولكن أرجوك ألا تذهب أنت بعد أن أذهب أنا يا لوك، هذه الحياة جميلة رغم كل شىء.

ثم استدارت السيدة نحوى فجأة وعادت تمسكنى بأصابعها القاسية العظام وقالت هذه الحياة جميلة يا سيدى. كم هى جميلة!

ثم طفرت من عينها دمعة.

قلت بشىء من الغضب: لماذا تتكلمين هكذا يا سيدتى؟ لك ابنة تحبك وستعيشين طويلا. كلنا سنذهب على أى حال ولكن لا أحد يعرف متى سيذهب..

ـ معك حق يا سيدى. الطبيب فى المستشفى قال ذلك أيضا. من يدرى؟

وللمرة الأولى ضحكت ضحكة رفيعة كصهيل فرس خافت وقالت:

ـ لا تبال بهذه العجوز المخرفة التى عطلتك. معذرة إن كنت ضايقتك، حان لنا أنا ولوك أن نأكل شيئا. أنت أيضا كنت تريد أن تنصرف..

مسحت الدمعة التى كانت تتسرب بين تجاعيد وجهها بظهر يدها ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها طوقا وضعته فى عنق الكلب الذى نكس رأسه. وراحت السيدة تجاهد مرة أخرى لتقوم من المقعد وهى تستند إلى عصاها فنهضت وساعدتها حتى وقفت على قدميها.

قالت: شكرا لك.. اشكر هذا المصرى الطيب يا لوك. آمل أن أراك مرة أخرى يا سيدى..

تطلعت إليها مبتسما وابتسمت أيضا للوك ولمست رأسه فرفعها وهز ذيله القصير ثم انصرفا وهما يلقيان خلفهما ظلا مزدوجا راح يبتعد ببطء..

فى المربع الحجرى نبح كلب صغير نُباحا متصلا. كانت معظم الكلاب وأصحابها قد انصرفوا فى موعد الغداء وبقى هذا الكلب. تطلعت السيدة إلى الخلف وقالت وهى ترفع صوتها:

ـ ألم أقل لك إن هذا الكلب مريض؟ أين يمكن أن يكون صاحبه قد ذهب؟

لوَّحت لها وأنا أبتسم لأن نباح الكلاب فى هذا البلد دليل مرض، ولكنى عدت أجلس على المقعد فى الشمس أتابع ظلها وهو يبتعد.. جلست هامدا. نسيت الرائحة النتنة.. رحت أفكر كم فى هذه الحياة من حزن. فكرت فى حبيبتى التى ضاعت. فى شقائنا معا الذى محا سعادتنا معا. فكرت فى هذه السيدة المريضة ووحدتها. فكرت فى الأعزاء الذين ذهبوا وفيما يحمله الزمن معه. فى الأحلام الكثيرة التى كانت لدىّ والتى لم يتحقق منها شىء. قلت لنفسى ليكن يا حديقة الكلاب. ولكن هذه الحياة جميلة. ليكن.

قمت بطيئا ومتثاقلا. تركت حديقة الكلاب ورائى. واجهنى خارجها الصمت فى ذلك الحى الذى لا يتجول فيه أحد. ولكنى لما دخلت فى أول شارع جانبى وجدت إلى جوار سور مدرسة مغلقة

تلك الكومة على الأرض ووجدت لوك يتشمم الحقيبة الكبيرة الملقاة على الرصيف فانحنيت وأنا أصرخ:

ـ لوك.. أيها الكلب.. لماذا لا تصرخ.. لماذا لا تنبح؟

كان وجه العجوز المتغضِّن مزرقًا ولكنها كانت تتنفس، فجريت إلى كشك التليفون القريب وأنا ما زلت أصيح: يا لوك لماذا لا تنبح؟ أيها الكلب لماذا لا تنبح؟

جاءت بسرعة عربة الإسعاف. وكان رجل يعطى بسرعة للسيدة حقنة وهى على محفَّة فوق الرصيف وآخر يضع على أنفها قناعا من الأوكسجين.

وكان الثالث يسألنى أسئلة وهو يكتب فى ورقة. قلت له لا أعرف اسمها. لا أعرف مرضها. قابلتها فى تلك الحديقة ثم وجدتها على ذلك الرصيف.

ولكننى بعد لحظة تذكرت فقلت: اسمع. قالت إن لها ابنة.. كان يقلِّب فى حقيبتها وأوراقها فقال: سنصل إلى ذلك فلا تقلق..

لم يستغرق ذلك كله سوى خمس دقائق. وبينما كانوا يحملونها على المحفَّة إلى السيارة التى كانت تطلق أزيزا متصلا ويدور فوقها مصباح أزرق قلت للممرض الذى كان يسألنى:

ـ هذا الكلب.. لوك.. هى صاحبته..

كان لوك واقفا أمام باب السيارة الخلفى المفتوح وهو يزوم بصوت خافت...

فقال لى الممرض وهو يدخل ويسحب الباب وراءه:

ـ أرجوك لا تعطلنى. أنت تريدنا أن ننقذ هذه السيدة، أليس كذلك؟

وبسرعة انطلقت العربة، وعلا الأزيز، ثم ابتعد ثم اختفى. جرى لوك وراء العربة خطوتين ونبح لأول مرة ثم سكت وعاد ناحيتى.

ظل يتطلع إلىّ وهو يهز ذيله وظللت أتطلع إليه ثم قلت وأنا أضحك ضحكة خافتة: «ماذا سنفعل الآن يا لوك فى هذه الحياة الجميلة؟».

ثم تركته واستدرت ورحت أمشى مبتعدا عنه بسرعة. ولكن من ورائى كنت أسمع صوت المقبض المعدنى للطوق وهو يدق على الرصيف بصوت رتيب: تراك.. تراك.. تراك. فوقفت....

(١٩٨٤)

## صدر للكاتب

| | | |
|---|---|---|
| ١ـ الخطوبة | مجموعة قصصية | ١٩٧٢ |
| ٢ـ بالأمس حلمت بك | مجموعة قصصية | ١٩٨٤ |
| ٣ـ أنا الملك جئت | مجموعة قصصية | ١٩٨٥ |
| ٤ـ ذهبت إلى شلال | مجموعة قصصية | ١٩٩٨ |
| ٥ـ لم أعرف أن الطواويس تطير | مجموعة قصصية | ٢٠٠٩ |
| ٦ ـ شرق النخيل | رواية | ١٩٨٥ |
| ٧ـ قالت ضحى | رواية | ١٩٨٥ |
| ٨ـ خالتي صفية والدير | رواية | ١٩٩١ |
| ٩ ـ الحب في المنفى | رواية | ١٩٩٥ |
| ١٠ـ نقطة النور | رواية | ٢٠٠١ |
| ١١ـ واحة الغروب | رواية | ٢٠٠٦ |
| ١٢ـ ١٠ مسرحيات مصرية | نقد | ١٩٨٥ |
| ١٣ـ في مديح الرواية | نقد | ٢٠٠٤ |
| ١٤ـ أبناء رفاعة: الثقافة والحرية | فكر | ١٩٩٠ |
| ١٥ـ فاصل غريب (ترجمة لمسرحية يوجين أونيل) | ترجمة | ١٩٧٠ |
| ١٦ـ ساحر الصحراء (ترجمة رواية الخيميائى ) | ترجمة | ١٩٩٦ |